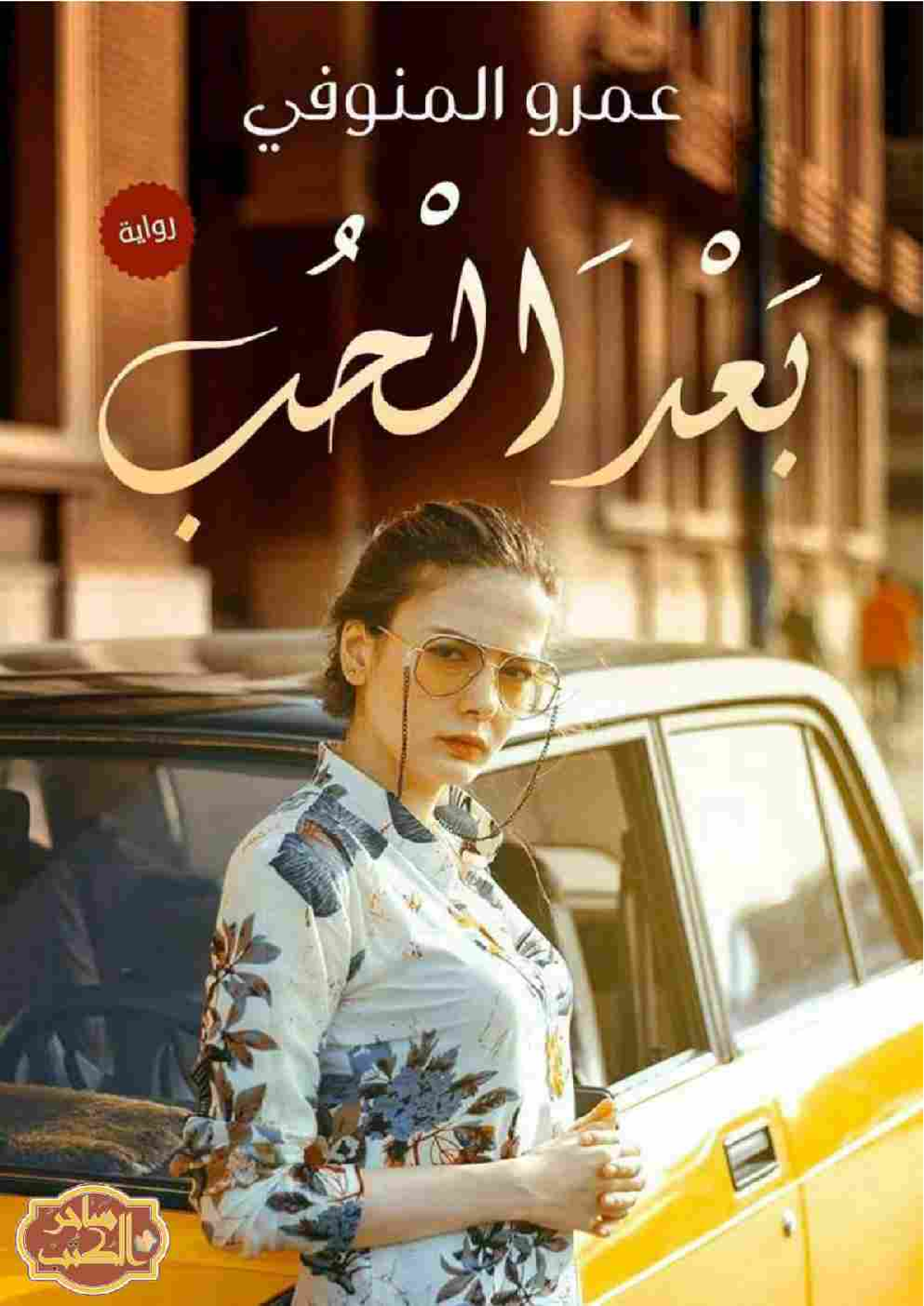
عمرو المنوفي
رواية
بعد الحب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

لا أعرف حقا، هل هذه هي النهاية العادلة لقصتي أم لا، ولكني أدرك دون لحظة شك واحدة أنها النهاية الحتمية لها.

سيتم الأمر بالسم.

وسيلة سريعة ونظيفة، لإنهاء حياتي بشكل لا يسبب فضيحة لي أو لمن تبقى من أسرتي، فالمنتحرين دائما موصومين، بل ويتم تكفيريهم من المجتمع، ويصبحون عار على أسرهم، وكأنه لا يكفيهم ما دفعوه من ثم فادح.

توقعت أن أكون في أكثر حالاتي انهيارا وعصبية، وأنا أخط تلك الكلمات، التي أعلن بها للجميع نهاية رحلتي على هذه الأرض، ولكني على العكس أكتبها دون توتر، بأعصاب هادئة متماسكة، وقلب مطمئن غير صاخب كعادته، وعقل في أصفى حالاته لا تزاحمه الأفكار.

وهذا إن دل، فإنما يدل على أنني تركت خلف ظهري كل هموم الدنيا وأستعد للعبور إلى العالم الآخر، الذي

(1)

في البداية، أعرفكم بنفسي:

اسمي سلمى السعيد.. طبيبة أمراض نفسية، ومعالجة، ومرشدة نفسية وأسرية. عمري ثلاثة وثلاثون عاما، قضيت بعض الوقت في العمل بإحدى المستشفيات الاستثمارية بالإمارات العربية المتحدة، وطالت رحلتي لسنوات عدة؛ لأسباب كثيرة ستعرفونها بأنفسكم مع الوقت، ثم رجعت بعدها إلى بلدي الأم مصر وتزوجت، وفتحت بعدها مباشرة عيادتي النفسية الخاصة في مكان راق بالقاهرة، على الرغم من أن الاسكندرية هي مسقط رأسي، فالقاهرة سلخانة نفسية، وتغص بآلاف المرضى الذين هم بحاجة لمساعدتي، للعبور بهم من ظلام النفس إلى نور الحياة.

حكايتي المأساوية لم تبدأ الآن، بل بدأت منذ زمن بعيد، ربما في تلك اللحظة الفارقة، التي علمت فيها، أن الحياة ليست مجرد طعام وشراب ولهو، وتمرد على كل المفروض والموجود، وغيرة متبادلة بيني وبين

زميلاتي في المدرسة أو السنتر الذي أتعاطى فيه الدروس الخصوصية، على أشياء تافهة لا قيمة لها.

بل عندما أدركت أن أهم ما في الحياة هي المشاعر الصادقة، ذلك الإحساس المُلِح، والموجع، بأنك بحاجة لأن تنتمي لشخص ما، وأن تمنحه تلك الهبة الربانية العظيمة التي تسمى الحب.

تلك اللحظة التي تدرك فيها أنك مجرد نصف لن يعرف طعم الحياة، حتى يلتقي بنصفه الآخر ليكتمل.

كنت أفتقد بشكل واع رغم صغر سني في حينها، تلك اللمسة النورانية الناعمة، التي يتركها الرجال في أرواح النساء، فتصيبهن بالتوتر والطمأنينة في ذات الوقت، وتأخذهن لدنيا بعيدة مليئة بالأحلام والورود والوعود.

وأشتاق لتلك العاصفة الجامحة من المشاعر التي تجتاح العاشقين، وذلك الإحساس اللذيذ المخدر الذي يعرفه كل المغرمين، والذي يخبرك بأن هناك من يحيا

سعيدا لمجرد وجودك في حياته، وتحيا أنت سعادة كاملة لأنه أصبح كل حياتك.

كنت بحاجة ماسة لتلك اللمسة السحرية العذبة البريئة، التي كانت قادرة على تبديل الفصول والعقول والقلوب. لتنتهي وحدتي العميقة، وحيرتي الدائمة.

كنت أتمنى وقتها، أن أحيا قصة عشق دافئة مكتملة الأركان، أمنح فيها لمن يختاره قلبي.. روحي وحياتي وكياني، لأكتمل وترتاح نفسي، وأكتب اسمه معانقا أسمي في دفتر يومياتي.

حلم مجرد من كل التفاصيل، لفتاة لم تنعجن بعد بمآسي الحياة.

حلم مراهقة كانت تنظر للحياة من نافذة وردية، وعميت دون إرادتها عن السحب القاتمة، التي تظلل كيان الوجود.

لقد نضجت بشكل مبكر عن قريناتي، وأول ما نما في جسدي هو قلبي، وهذه كانت مصيبتي، وهو أمر

يحدث كثيرا للفتيات اللاتي يتمتعن بذكاء فطري، وقوة كبيرة على الملاحظة، وقدرة متفوقة على ترجمة ما يدور حولهن من أحداث وهضمها بسهولة، والتفاعل معها دون وعي كامل.

وكطبيبة نفسية، أدرك أن النضوج العاطفي المبكر مصيبة كبرى على الفتاة التي تجمع خبراتها ممن حولها دون توجيه، بينما الأهل غافلين عن هذا التحول الاستثنائي الذي يحدث لبناتهم، خاصة في سن المراهقة الجامح، وتقلب الهرمونات.

لذا عليهم أن يكونوا بالقرب منهن لاكتشاف الأمر وقت وقوعه، والذي سيعد من أسرارهن العظمي، وذلك لنجدتهن ومساعدتهن عندما يخطئن أو يتورطن في أمور أكبر من فهمهن واستيعابهن.

والأهم ألا يتوقفوا لحظة عن دعمهن في حينها كي لا يسقطن في الخطأ أو الخطيئة.. وعند وقوعها -لا قدر الله- عليهم أن يُقَوِمُوا لا أن يكسروا، لأن الجراح النفسية لا تندمل بسهولة.

وقد لا تندمل أبدا.

فالخطيئة سيئة، ولكن الأسوأ منها آثارها اللاحقة، ليس على بناتهم فقط، ولكن على جميع من حولهم.

وأعتقد أن أحد أسباب نضوجي العقلي والعاطفي المبكر، هو ما رأيته من حب وود ولطف وتفاهم بين أبي وأمي، وهو أيضا ما جعلني أنشأ بهذا القلب الحنون الرقيق الشغوف بقصته الخاصة.

وأطلق أنا عليه : الآثار السلبية للأشياء الجيدة.

وهذا ينطبق أيضا، على أكثر شيء أثر علي حكمي وتقديري لكثير من هذه الأمور شديدة الحساسية والخطورة؛ وهو عشقي الجامح لتلك الروايات الرومانسية الحالمة، التي كانت تكتظ بها مكتبة أمي، وأراها متناثرة في كل مكان من بيتنا.

تلك الروايات الساحرة، التي فتحت أمام عيني بوابة عظيمة على عالم خيالي من الأحلام والمشاعر، تمنيت

ذات يوم أن يكون جزءا من واقعي، بقصص الحب والتضحية الملحمية، التي تقبع بين صفحاته.

وأعتقد أنني لو كنت أكثر جهلا وغباءً في هذا التوقيت، لكنت أكثر أمنا وراحة، ولكن كل شيء في حياتي كان يصنع للعالم من حولي، صورة حالمة براقة، بعيدة عن الواقع الذي أحياه ويحياه الجميع.

لا أعرف إن كان هذا الفكر الخيالي، البعيد عن الواقع، شيئا جيدا أم سيئا، ولكنه كان على كل حال جزءا مني ومن شخصيتي. وهذا كان يجعلني متوترة ومترقبة طوال الوقت، وشغوفة لذلك الإحساس الغامض، الذي لم أتوقف لحظة عن القراءة عنه، وشحن قلبي استعداد لغزوه.

لن أخبركم أنني كنت فتاة جامحة في صباي تبحث عن تحقيق حلمها برعونة، ولن أخدعكم بكوني كنت فتاة منغلقة لا تسعى إليه.

بل كنت مجرد فتاة بريئة أخرى، مازالت تتعلم كيف تحبو في هذا العالم، بعقل مراهقة، تحمل قلب حالم عطش للمشاعر، تتطلع إلى عالم الرجال بانبهار، وتحلم بالفارس الذي يتراءى لها في الأحلام كل ليلة، قادما على حصانه الأبيض، وفي ابتسامته مفاتيح السعادة.

ذلك الفارس الذي تأخر عليها كثيرا بعد أن استعرت مشاعرها، وتهيأ قلبها للحب قبل أن ينضج عقلها بالقدر الكافي ليقود دفة مشاعرها، لدرجة أنها كتبت العديد من الخواطر السرية تخاطب بها هذا الحبيب المجهول، فالوقت عند العشاق نسبي، ويوم انتظار بألف عام.

كنت أكتب خواطري على شكل روايات قصيرة بكلمات ساذجة في نهايتها يتزوج الأبطال، ويحيون حياة سعيدة، في جنة أرضية يظللها الحب، وتغشاها الورود .

فلا أعرف نهاية للحب إلا تلك النهاية ولا أتمنى سواها لنفسي.

عقلي لم يكن يعرف أن النهايات السعيدة تحيا فقط في قلوب الحالمين، وأن طبيعة الحياة هي القتال للحصول على الحب ثم القتال للمحافظة عليه، ثم القتال كي لا تكون نهايته مأساوية.

كل أفكاري، وأحلامي، وأمنياتي، كانت تتوقف عند الحب، أما ما بعد الحب، فلم أكن أعرف أنه قد يكون كارثة أو فاجعة أو خذلان أو جريمة.

لذا ظل قلبي الأخضر مهيأ للحب على الدوام، وكأنني نصبت لنفسي فخا.. وانتظرت فقط الوقوع فيه، خاصة بعد أن فاجأتني دورتي الشهرية التي أتت متأخرة عدة أعوام، والتي أخبرتني أمي وقتها، أن حدوثها، هو ما جعلني أنتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ، تمهيدا لأن أكون امرأة؛ وأُكَوِّن أسرة، وأنجب!

وعلى أثر هذه الحادثة الدامية غير المريحة والمؤلمة في كثير من الأحيان، أضيفت إلى أحلامي، صورة

لطفلة جميلة ستنعتني بلقب أمي، بل وأطلقت عليها اسم مميز: (جودي).

وأصبحت بيني وبين نفسي، أم جودي.

أحلامي كانت تتوسع، ومشاعرى تتشعب، وخواطري تصير أكثر جموحا، وتلك كانت مصيبة عظيمة، لأنني كنت مستعدة للوقوع في الحب، مع أول من سيقرع أبواب قلبي.

وقد حدث.

في السابعة عشر من عمري، طرق الحب أبوابي، بل هزها هزا.

اسمه زياد.. كان يكبرني بثلاثة أعوام، يمتلك جسدًا رياضيًا مشدودًا، وشعرًا مصففًا لامعًا، وابتسامةً ساحرةً، ولسانًا ساحرًا آسرًا.

وبرغم مضي السنوات والمحن، مازلت أذكر جيدا كيف اقتحم حياتي، واختطفني من ذاتي، وكيف صار بطل

كل الروايات الرومانسية التي كنت أقرأها بشغف أكبر بعد أن صارحني بحبه، وكيف انصبت كل خواطري عليه بعدها.

فمن هنا بدأت مأساتي ومعاناتي وحكايتي الحزينة.

كان حب المراهقة، الذي لا مثيل له.. الحب الذي له طعم ورائحة الفل البلدي، أول زهور أهداني إياها، على شكل عقد جميل، اشتراه خصيصا من أجلي.

كان أول من حرك مشاعري بذلك الطوفان الكاسح، المسمى الحب، وتلك الكهرباء اللذيذة التي تدغدغ كل خلية عطشى في جسدي، والذي تضخم بأعماقي بسرعة البرق، فصار، عشق، فوله، فهيام.

كان نصفي كما كنت أعتقد وقتها، وكان اكتمالي الذي عوض كل نقص كنت أشعر به، وأسعى لملئه.

لا يمكن أن أنسى الاسم، أو الملامح الوسيمة، ولا نظراته العاشقة كلما رآني، والتي علقتني به، وجعلتني أعيش أهم أحلامي على أرض الواقع.

ولا يمكن أن أنسى أول جملة ألقاها على مسامعي أثناء عودتي من سنتر الدروس الخصوصية، في ذلك اليوم الربيعي الآسر، والتي جعلتني أعود إلى البيت، منتشية تسحقني عاصفة من المشاعر برغم سذاجتها:

- "أريد فقط أن أتحدث معك يا سلمى.. أنا لن أخطفك.. أنا أحبك".

تمنيت وقتها لو أخبرته، أن كياني كله، كان ينزف من أجل أن أسمع منه هذه الكلمة.

يومها لم يعرف النوم طريقي.. بل وحلمت به، كفارس يختطفني على حصانه الأبيض.

وعندما التقينا، في أوقاتنا المسروقة من الزمن والناس والحياة، كنت أسعد فتاة خطت على الأرض منذ بدء الخليقة..

ومن يومها وأنا أنهل من قربه ووجوده.

عامان كاملان كنا معا..

نتبادل دفء الحب واللهفة، ونستكشف معا ذلك العالم الساحر، المليء بالقلوب، والورود، والمشاعر الاستثنائية، التي أصبحت تجري منا مجرى الدم في العروق.

أخبرني أنه سيبقى بجواري إلى الأبد، وأنه سينهي دراسته ويعمل ويتقدم لي، ولم أهتم أنا بحسابات الزمن، ولم أكن أعرف شيئا عن صعوبة تحقيق الوعود، ومع كل ما كنت أحمله له من حب، ظننته سيبقى بجواري هكذا إلى الأبد، بل آمنت بهذا.

فالحب لا يعرف إلا الأبدية، ولا يقبل بشيء أقل منها.

كنت في قربه كطائر لم يعد يشعر بتأثير الجاذبية أو الزمن عليه، فقط أدور في فلكه، أتعاطى كلماته، وأسبح في أثير من ضيائه.

كل شيء كان يوحي لي بأن الأمر سيستمر حتى اللحظة المرتقبة التي سنكون فيها سويا ولن يفرقنا إلا الموت..

ولذلك أعطيت له الأمان وللأيام، ولم أهيىء قلبي لأي صدمات أو أحزان تأتي من ناحيته، فكل ما كان مهيأ له قلبي في هذا الوقت العاصف، هو المزيد والمزيد من الحب.

وحتى هذه اللحظة لا أصدق أن تلك القصة الملتهبة المليئة بالعواطف والمشاعر والوعود، قد انتهت إلى غير رجعة، ومعها تبخر معنى الأبد، والوفاء والسعادة، وبقي الألم والصدمة، والخذلان.

الوجع الذي أعتصر قلبي وقتها أفقدني توازني، بل شق روحي شقا، وأدخلني في دوامة مظلمة حولت حياتي بعدها لليل طويل.

ولفترة طالت من الزمن، لم أصدق أن هذا حدث لي، وأن قصتي معه قد انتهت إلى هذه النهاية المفجعة.

وكلما حاولت استرجاع تفاصيل هذه الأيام عجزت بشكل كامل، فقد محى معظم تفاصيلها عقلي العنيد،

في بُعدي الراحة والتحرر.

وهما الشيئان اللذان أفتقدتهما بعدها.

ومع يأسي أقنعت نفسي أن بعض الأشياء تنتهي لأنها تنتهي.. هكذا فقط.. وبلا أسباب أو مبررات أو تمهيد، وهو الأمر الذي قصم ظهري وقتها، لأنني لم أستطع منح نفسي مبررا واحدا يساعدني على استكمال حياتي الطبيعية، وعبور محنتي.

هل أحبني زياد حقا؟

هذا ما أنا متأكدة منه برغم كل ما حدث، ولا يمكن أن أشك فيه لحظة، مهما مر الزمن وتعاظم الألم وطال الفراق، فلا يمكن أن تخطيء بوصلة قلبي بهذا الشكل المفجع..

كانت هذه هي اللحظة، التي أظلم فيها قلبي، وتبدلت شخصيتي فصرت ناقمة على كل شيء في الحياة، وبدأ ذلك الصوت القاسي اللائم بداخلي يطاردني دون

هوادة، فجعل قلبي متحفزا رافضا الثقة في كل من حولي، وقاده إلى حافة الانهيار.

كانت أول صدمة عميقة لي كفتاة حالمة، لم تختبر حقيقة العالم، ولم تعرف أن الحياة بمثل هذا التعقيد، لدرجة أني استسلمت لها ولأوجاعها، دون أن أخوض حرب الدفاع عن حبي، ورجلي كما تفعل بطلات الروايات الرومانسية الخيالية التي كانت دليلي في عالم الواقع.

غرقت في دوامة الحزن والخذلان، دون أن أحاول التمسك بأي قشة قد تنجيني من هذا الغرق.

صدقوني..

إن الدمار النفسي الذي نمر به بعيدا عن قلوبنا، مجرد هباء، إذا ما قارناه بما يحدث داخلنا في لحظة الخذلان.

وكأنما أصابتني صدمة الخذلان بنوع من التسمم في مشاعري فزهدت الحياة، وانطويت على نفسي، وكاد

سلوكي هذا يؤثر على مستوى تحصيلي في الدراسة لولا وجود أمي بجواري، ودعمها الدائم لي، والتي برغم عدم احاطتها بتفاصيل ما حدث، ولكنها قرأته في عيني وفي سلوكي.

فأخبرتني بطريقتها الحانية التي لم تخل من لوم وهي تضمني إلى صدرها في تلك الليلة الكئيبة، أن مواجهة كل صدمة في الحياة لها طريقان، أحدهما بالغرق فيها والضياع، والآخر في عبورها لنصبح أقوى، ونتعلم حقيقة أزلية يغفل عنها الجميع : أن قلوبنا قد تخدعنا فلا نحسن الاختيار.

وأن لكل شيء وقته، فالأشياء التي نحصل عليها في غير وقتها، تضيع دائما، ولو استمرت لمجرد رغبتنا في هذا فقط.. فإننا قد نضيع معها، وبعض الهزائم مهما كانت قسوتها مكسب على المدى البعيد.

كما أخبرتني أن الحياة لا تقف عند هزيمة أو خذلان، وأن الاختيار الخاطيء نتعلم منه الحذر، وكيف علينا

أن نختار بعقولنا ثم بعدها نمنح لقلوبنا الضوء الأخضر ليدعم هذا الاختيار.

وهنا أدركت أنني لم أكن ناضجة بالشكل الكافي لأعبر محنتي، فالحزن لا يحتاج لنضوج العقل فقط لتعبر خندقه، ولكنه يحتاج لإرادة، لم تكن متوفرة لي مع صدمتي، فخرجت منها بقلب مهشم هش، تعلم أول دروس الحياة بطعنة نجلاء.

ولا أنكر أن هذه التجربة بحلوها ومرها، قد أثرت على اختياراتي فيما بعد، بل في حياتي كلها.

هل كرهت الرجال حقًا؟

حدث هذا لسنوات عديدة أغلقت فيها قلبي، أمام كل من حاول النيل منه، أو حاول أن يتقرب مني.

كان كرها، وعدم ثقة، وهلعا من خوض تجربة أخرى، فهزيمتي في قصة حبي الأولى ظلت تلوح أمام عيني طوال الوقت، والألم الذي عاصرته بعد قصة حبي الغادرة، أصابني بخوف رهيب من تكراره.

فالحالمة، أميرة الخيال، جاء لها الوقت، وتوقفت عن الحلم، ولم تعد ترى بعد الخذلان إلا الكوابيس.

لجأت إلى أمي كثيرا في لحظات الضعف والشوق، التي كانت تغتالني كلما غشيتني موجة من موجات الحنين إلى زياد.

وكانت تلك العزيزة بجواري تصحبني في رحلة التعافي والصراع كملاك حارس، ومعها تعلمت أن الحياة كي تكون عادلة لابد ألا نضعف أمامها مهما كان مقدار وجعنا.

وعلينا أن نواجهها مهما كانت قسوتها، وأن نكون أمام بطشها أقوياء، فالعدل لا يكون للضعفاء، والسعادة لا تمنح؛ بل نصنعها مع من يستحق، ونعاني لنحافظ عليها.

ساعدتني أمي، ودعمتني عتاب صديقتي المقربة، وصوت الحياة العاقل الوحيد الذي أنصت إليه دون

غضاضة، ومن وقتها قررت أن أواجه نفسي وأقومها، وتعلمت أن أختار.

بل أن أحسن الاختيار، فقلوبنا ليست مسرحا للتجارب.

فالقلب وإن شفي من طعنة غدر، تبقى به الندوب التي لا تنسى قط ولا يمحوها شفاء.

ونحن نستحق دائما ما هو أفضل، لأننا نمنح أفضل ما فينا دون حرص أو تردد أو حذر.

كان لدي أحلامي التي ظلت تؤرقتي، وأصبح لدي مخاوفي ووجعي الخاص، وقصتي الواقعية التي انتهت بشكل خيالي، ومأساوي.

وهذا نقلته بشكل كئيب وسلبي إلى كل صديقة كانت تحاول الخوض في قصة مماثلة، حتى أطلقوا علي لقب (غراب البين) ولكن أن تحيا كغراب بقلب سليم، خير من تحيا كعصفور بقلب ممزق.

وتعلمت في النهاية بكل قسوة، أن على الأحلام أن تنتظر الوقت المناسب.. فالزهرة التي تنبت في غير موسمها، تموت بالسكة القلبية.

وقصص الحب لا تنتهي دائما نهاية سعيدة، وأن ما نريده لا يتحقق لمجرد رغبتنا في ذلك، وأن علينا أن نتعامل مع الحياة بحذر.

ومع قلوبنا بحذر أكبر.

(2)

رغم مرور الأيام، ورغبتي الجامحة في النسيان، وتجاوز انكساري، لم أعبر تلك المحنة بسهولة، وكنت أتعجب بيني وبين نفسي من هؤلاء الفتيات اللاتي، ينهين قصة حب عاصفة، ليبدأن قصة تالية بعدها دون جهد أو غضاضة، أو معاناة.

وكنت أحرق نفسي متسائلة، كيف يمكن لقلوبهن أن تتجاوز هذه المحنة بهذه البساطة؟

بل كيف تتقبل أرواحهن استبدال روح بروح؛ دون أن تتهشم قلوبهن، وينهار كيانهن من طعنة الغدر؟

من أين تنبع كل هذه القوة، وهذا الجبروت؟

هل أنا عمياء وساذجة إلى هذا الحد أم أن قلوبهن عليها غشاوة، وكل ما يدفعهن إلى هذه الأفعال هي غريزتهن فقط؟.

ولم أجد إجابة حقيقية وقتها تريح قلبي أو تطفيء بركان نقمتي، وكان هذا الصوت اللائم بداخلي يخبرني دون رحمة، أن العيب في أنا، وأنني السبب في كل لحظة ألم يمر بها قلبي، لأنني كنت ساذجة، وحمقاء في منح مشاعري، دون أن أتخذ الضمانات الكافية للحفاظ على هذا الحب.

تلك الضمانات التي لا أدري حتى هذه اللحظة ما هي!!.

أليس الحب وحده ضمان كاف؟

لقد كدت أفقد نفسي مع نزف قلبي، وضياع حلمي، بل إنني في بعض لحظات ضعفي فكرت في الانتحار، معتقدة أن الموت وحده هو القادر على تسكين وجع القلوب.

ولكنني قاومت، وبرغم أني لم أستسلم للفكرة، وحافظت على حياتي ولم أسلمها طواعية لمخالب

الموت، إلا أنني لم أعبر محنتي بسهولة، وخسرت فيها الكثير.

فكانت الأيام تمضي من حولي، والحياة تتعقد، ودوامة الحياة بكل قوة جذبها العاتية تسحبني إلى ظلامها، وقلبي المطعون مازال على عناده يأبى أن يرأف بي أو يرحمني.

ومن واقع معاناتي أخبركم: أن الحب الأول ليس وهما كبيرا كما يقولون، بل درسا صعبا قلما نتجاوزه دون أن ننهار، أو نفقد ثقتنا في كل شيء، فالأوهام لا تؤلم بهذا الشكل، ولا تتركنا ننزف على قارعة طريق الحياة.

الحقيقة المؤلمة، أني أرهقت نفسي وأمي وعتاب، وبرغم نصائحهما السديدة التي جعلتني قادرة على الصمود إلى حد ما، إلا أنني تغيرت كثيرا وأصبحت أكثر قسوة ولا مبالاة.

وانعكس هذا سلبيا على كل من حولي، ورأيت هذا جليا في عين أبي الحزينة ومقدار إحساسه بالعجز،

وكم الهم الذي أصبحت أمثله بالنسبة له، خاصة وهو يراني أذبل أمام عينيه، وأرفض طوال الوقت كل من يتقدمون لي، بمبررات غير مقبولة، وكأن ضياع حلمي، صار وسيلة عقاب دائمة، أعاقب بها نفسي وقلبي وأقرب الناس لي، فلا أحقق لهم حلمهم، بأن يرونني عروس في كنف رجل اختارها ورضيت به.

فما لا يعرفونه، أن الرضا لا يحيا في قلب حطمه الخذلان.

ومع دعهم الدائم دون كلل أو ملل أو شكوى، أجبرت نفسي على القتال كي أنقذها من هاويتها دون إرادة حقيقية.

وكلما تقدمت خطوة تراجعت عشرة خطوات، خاصة وأنا أرى زياد يعيش حياته، دون أن يشعر بالدمار النفسي الذي خلفه في حياتي من بعده، لدرجة أنني كنت أدعو عليه في الصلاة كل يوم بألا يرى السعادة قط، فما أحياه بعد حبه، هو عذاب لا ينتهي، خاصة وأن حبه برغم معاناتي لم يغادر قلبي بسهولة.

وفعلي هذا كان يخبرني أني تغيرت إلى الأسوأ، وأن روحي بعد الحب والسعادة، ظللت عليها سحب الكراهية، لزياد ولنفسي والحياة.

ومع الوقت ورفضي المستمر للمتقدمين، ومعاناة أهلي معي، بدأت أشعر بكوني عبء على الجميع وعلى نفسي؛ رغم تفوقي الدراسي وتخصصي الذي كان من المفترض أن يساعدني في تجاوز محنتي، ولكن كان من الجلي أن جراح بعض القلوب لا تشفى أبدا مهما حاولنا.

وأدركت عمق مأساتي عندما جلست مع نفسي أحاسبها وألومها، في تلك الليلة التي مرض فيها أبي، وحملت نفسي فيها مسئولية مرضه، بعد أن حاول للمرة الأولى أن يفرض إرادته علي، ويجبرني على الموافقة على قريب لي لا عيب فيه، تقدم لخطبتي، فارتفع صوتي عليه للمرة الأولى، وحدث بيننا صدام هائل، جعله يعتقد بداخله أنه فقد ابنته إلى الأبد.

لقد تجاوزت في هذا اليوم، كل حدود الأدب والتقدير لأبي، دون أن أتمالك نفسي، أو يلومني ضميري، فأنا لم أتهشم من الداخل فقط بل تشوهت، وانتكست.

حاولت أن أفسر هذا الموقف وقتها، ولكنني لم أستطع، فأبي كان يبحث عن الخير لي، وأنا عاملته كعدو لي، ربما لأنه حاول أن يفرض وجود شخص آخر في حياتي، قد يكون كزياد أو ما هو أسوأ.

والآن بعد أن خبرتني الحياة وخبرتها، أعلم أنه كان بداية إنهياري الفعلي، وانتكاسي، فبرغم أن فشل حب المراهقة لا يترك مثل هذه الآثار المدمرة على القلوب، لأننا مع الوقت نفهم أن الأمر مجرد لعبة غير ناضجة من الهرمونات، ومحاولة لتقليد أعمى لقصص أخرى تدور من حولنا، ومع مضي الأيام نتعلم كيف نسيطر على مشاعرنا، فنداوي الحب الفاشل، بحب جديد أصدق.

ولكنني لم أعلم وقتها هذا الأمر، ولم أكن مهيأة للتعامل معه، وكان من الواضح أن قلبي أهش من اللازم،

فبعض القلوب أرق من غيرها، وصدمتها تكون أكبر، وبعضها لا يتجاوز صدمته بسهولة، حتى أنني كنت أتساءل كل ليلة تلت صدمتي الكبرى:

أهذا هو الحب؟ أهذا هو ما يأتي بعد الحب؟ هل كل روايات الحب والنهايات السعيدة التي عشتها مع أبطالها، مجرد وهم وخيال؟

أم أنني التي أدمنت الحزن، وأصنع تعاستي بنفسي؟

تأملت نفسي، ثم تأملت من حولي، فوجدت أبي وأمي يعيشان في سعادة لا ينغصها إلا وجودي على هذه الحالة البائسة.

تتبعت قصة غرام عتاب توأم روحي وصديقتي المقربة، التي أحبت وتزوجت وتحيا في سعادة كاملة رغم هموم الدراسة التي تثقل كاهلها- فهي تزوجت وهي مازالت طالبة- حتى وقر بداخلي أن القصور عندي أنا، لا في من حولي، وأن الصوت اللائم بداخلي على حق.

فاستسلمت لدوامة الوجع، ودفنت نفسي بين كتبي، وجعلت دراستي حبل نجاتي، وأفلح الأمر معي لسنوات متتالية، وعندما ظهرت نتيجة السنة النهائية، كنت الأولى في قسمي على دفعتي، بل وتم اختياري لأصبح معيدة، وسعد الجميع بي، ولكنني لم أكن سعيدة.

فالنجاح كان وسيلتي للهروب، والتفوق كان طريقي لهروب أكبر.

أذكر جيدا تلك الليلة التي أجتمعت فيها مع أبي وأمي، وأنا أحمل في يدي عقد العمل الذي سيكمل رحلة هروبي، إلى الإمارات، ملجأي للهرب خارج نفسي وعالمي.

كنت أحتاج لهدنة..

بداية جديدة في مكان جديد، مع بشر مختلفين، ومنحني عقد العمل هذا الوسيلة المثلى.

أعرف أنني كنت أنانية في اتخاذ تلك الخطوة المنفردة، ولن أخفي عليكم مقدار هلعي من الإقدام عليها، ولا الحزن العظيم الذي رصدته في أعين أبي وأمي، وحملته معي إلى غربتي.

مزقتني دموع أبي الذي أخبرني بصوت المغلوب على أمره، أنه لا يتخيل أن تغيب أبنته الوحيدة عن ناظريه ليوم واحد، فما بالي بعام كامل.

وليته كان عاما واحدا يا أبي، فالغربة لصة محترفة، وتسرق الأعمار دون رحمة أو شفقة، ودون أن نشعر.

أربعة أعوام سرقتني فيها الغربة، وأغرقني فيها العمل، ليبدأ الفصل الثاني من مأساتي.

وللأسف لم أنتبه لنفسي، أو ربما كنت منتبهة ولم أبالي، وأنا أمنح النصائح المسمومة لمرضاي، والذي كان بعضهم يحمل روحا أهش من روحي، ومن أعماقي كان يباركني ذلك الصوت الغامض، كلما نجحت في القصاص لقلب مكسور، أو في عقاب روح مخطئة.

لم أكن أساعد مرضاي فقط ليصبحوا أقوياء ويعبروا محنهم مع رجالهم أو نسائهم حسب نوع المريض، ولكنني نصبت نفسي كقاض وجلاد.

فكنت أقودهم بنصائحي النفسية التي كانت تتغير حسب شخصية المريض ومقدار تفاعله معي، وقدر صدمته.. ليتعاملوا بكل قسوة وعنف مع كل حالات الخيانة أو الخذلان، دون منح أي فرصة للتراجع أو بناء حياة كما يفترض مني أوجههم إليها.

كنت كغراب البين كما أطلقوا علي من قبل، أضع السم في العسل، وأناولهم الخنجر القاتل بابتسامة، كنت أنتقم من زياد في كل مرضاي.

أربعة أعوام وأنا أظن أنني أفعل الصالح.

أربعة أعوام حتى قرأت على تويتر نبأ انتحار روان إحدى مريضاتي والتي لم تتحمل روحها ما أجبرتها على القيام به، والتي كانت وللأسف أم ولديها أربعة أطفال في عمر الزهور.

أربعة أعوام تحولت خلالهن من غراب البين لطبيبة الموت.

أربعة أعوام قبل أن أتوقف لأراجع نفسي، وأرى الهاوية العميقة التي أتوجه إليها بثبات، قبل أن تصدمني تلك الحادثة.

وهنا قررت أن أرأف بمرضاي وأهلي، وبنفسي، وأحظى بأول إجازة لي.

وعندما عدت إلى وطني الذي كان يتبدل فيه كل شيء بسرعة الصاروخ، من البنايات، إلى الشوارع، وحتى الناس أنفسهم، ويتردى مثلي إلى الأسوأ.

عرفت كم أن الأيام أصبحت قاسية مثلي، فقد مرض أبي، وذبلت أمي بجواره، ووقتها فقط قررت أن أنهي رحلة هروبي، وانتقامي.

كان المتبقي من عقدي السنوي ستة أشهر، أخبرت أبي أنها آخر عهدٍ لي بالغربة، وسأعود بعدها له ولوطني، وعلى ذلك الصوت الأحمق بداخلي أن يصمت ويرتدع.

فكل ما خلفته في رحلتي هذه لم يكن إلا الحزن والخراب.

ومن حسن الحظ أن قراري هذا، كان له العديد من الجوانب الإيجابة، فاتخاذي هذا القرار منح لأبي القوة على الشفاء من مرضه، الذي كان بالطبع لأسباب نفسية عميقة، أهمها غيابي الطويل عنه.

كما أعاد لأمي بعض حيويتها ورونقها، وأراحني أنا أكثر مما أراحهما، فلم أعد أتحمل الغربة أو الظلام الذي عشت بأعماقه، أو القتال ضد نفسي أكثر، أو عقاب مرضاي على ذنب لا جريرة لهم فيه.

وما أدركته في هذا الوقت بعد صدمتي لموت روان بعد أن دفعتها للتخلي عن حب حياتها، أنه مازال هناك فرصة أمامي لأنتشل نفسي من غياهب الضياع، ومن نزيف روحي، فقد بدأ قلبي يهفو من جديد للاستقرار، ولمشاعر مختلفة غير الحزن الذي أرهقه.

عدت إلى الإمارات، بشخصية أقوي قادرة على منح السماح والغفران حتى لنفسها، بل وقررت أن أصلح ما أفسدته خلال الفترة الماضية، بإعادة التواصل مع مرضاي، ومنحهم النصائح الصحيحة غير المحملة بسوادي النفسي، وأنا أدعو الله الذي ابتعدت عنه كثيرا، أن يساعدني في هذه المحنة، وقد أمدني قراري هذا بقوة لم أعهدها في نفسي من قبل.

وأحسست من وقتها، أن شيئا بأعماقي قد تغير، صرت أكثر هدوءا، وثقة، خاصة وقد نجح مسعاي إلى حد ما في رأب الصدع الذي صنعته في حياة العديدين، وإن نغص علي أوقات فرحي، انتحار روان، ودعوت الله أن يسامحني عليه.

كان دافعي الأول للعودة والتغيير وبدء حياة جديدة، رؤيتي لحالة أبي وأمي، بعد نكبة روان، وخوفي من فقدهم جعلني أتخطى أنانيتي في الحزن ورغبتي الدائمة في الهرب، فلم أكن مستعدة لخذلان أو فقدان جديد في حياتي، فأبي وأمي هم كل حياتي.

فالغربة علمتني، أن وجودي في كنف أبي وأمي أعظم نعم الله، وأنني بسلوكي السابق جحدت هذه النعمة.

كما أن حديث أمي الحاني معي، جعلني أنتبه لنقطة غاية في الأهمية، وهي أن العمر يمضي بسرعة كبيرة، ولو مضى أكثر دون أن أنتبه لنفسي، ولمن حولي سيدهسني قطاره، دون رحمة أو شفقة.

بل وسأقضي باقي حياتي دون رفيق أسند على صدره رأسي المتعب، كلما احتجت إليه أو ضاقت بي الدنيا.

تركت أمي وأبي في موطني يعدان الأيام التي تفصلنا عن بعضنا، وعدت إلى دبي أعد نفسي للعودة الأخيرة، ومع الانتظار مضت الأيام ثقيلة كالجبال، حتى ظهر في حياتي عاصم.

وتبدل من وقتها كل شيء.

تقابلنا في حفل السفارة بمناسبة الاحتفال باليوم الوطني، الذي دعيت إليه مع وفد كبير من الأطباء النفسيين، وأتى هو مع وفد آخر من مهندسي البترول،

فقد كان يعمل كمهندس منتدب هناك في شركة البترول الوطنية التابعة للحكومة.

ومن أول نظرة وقع بصري عليه فيها، أدركت أن كل الجدران التي كانت تحيط بروحي قد تهاوت، وكل القيود التي كبلت قلبي قد تحطمت، وأن قلبي عاد يخفق من جديد.

مجرد نظرة خاطفة بدلت حياتي، وجعلت كهرباء الحب اللذيذة تسري في عروقي، وكأنها المرة الأولى التي أحيا فيها هذا الشعور.

لابد وأن هناك خيط سحري يربط العين بالقلب! لأن مجرة نظرة جعلت قلبي يبعث من رماده، ويشعر مجددا بالحياة.

ولحسن الحظ، أو أنه النصيب، فقد أصابنا سهم واحد من أسهم كيوبيد، أمير الحب العابث، فتعلقت قلوبنا كما تعلقت أبصارنا.

وفي حفل السفارة تعرفنا ببعضنا، وتَحَيَّنَ هو الفرص حتى انفصلنا عن الجمع المحيط بنا، وفي شرفة السفارة، وقفنا سويا، نتأمل القمر والنجوم، وتحدثنا في موضوعات كثيرة لا صلة بينها، فقط كان الرابط الوحيد بينها، أنها جعلت الحوار ممتدًا بيننا.

أخبرته عن عملي، وأحب لهجتي الهجينة بين المصرية والخليجة، وعندما سألته هل تأثرت ملامحي بفترة غربتي، فأخبرني أنه لا يمكن لملامح مثل ملامحي أن تكون إلا لأميرة فرعونية، معجونة بماء النيل.

بعدها تعددت لقاءاتنا في أماكن مختلفة، وأوقات متقاربة، وأقسمنا على الحب والوفاء حتى الموت.

وتصارحنا..

ولم أخفي عنه تفصيلة واحدة من حياتي؛ عدا جرائمي مع مرضاي، وأطلق عليها جرائم لأنها كذلك بالفعل.

فالغدر النفسي جريمة شنعاء، لأنه لا يقتل الجسد وحده، ولكنه يقتل الروح كذلك، ومن خبرتي كطبيبة

نفسية أدركت أنه لا يمكن لرجل مهما كانت قوة مشاعره أن يستوعب أو يغفر أمر مماثل لحبيبته مهما كان مقدار تعلقه بها، فأنا ذاتي لم أغفر لنفسي جرمها هذا، فكيف لغيري أن يغفره..

وصمة سوداء في حياتي كنت أتمنى من الله أن تزول.

وأخبرني هو بأمر خطبته الفاشلة التي عانى فيها كثيرا، وكيف أنه تخطاها بصعوبة، ويرغب في أن يمحوها بوجودي من ذاكرته.

وأخبرته أنا أن الماضي للماضي، وأنني سأكون سنده وموطن راحته، وتعاهدنا على أن نمحو معا جراحنا السابقة، بفتح صفحة جديدة نبدأها معا.

وأدركت وقتها أن الحياة التي طالما عبست بوجهي، قادرة على الابتسام.

ودعوت الله أن لا تتغير الدنيا علينا.

(3)

مرت الأشهر التالية وأنا في حالة استثنائية من الهيام والسعادة، وكأنها بضع ساعات، منحة من الله، الذي ربما قبل توبتي، ومحاولتي لإصلاح ما أفسدته في حياتي، وحياة الآخرين، حتى أوشك انتداب عاصم على الانتهاء.

وللعلم كان انتداب عاصم ينتهي قبل نهاية عقدي بخمسة أسابيع، وكانت هذه فترة كافية جدا لما قررته بيني وبين نفسي.

فقد قررت فيها أن أختبر حقيقة مشاعري في بعده المؤقت عني، فتلك السعادة التي كنت عاجزة عن مقاومتها بقربه، ولدت بداخلي هواجس ومخاوف لا حد لها، فقد أدركت في وقت مبكر من حياتي، أن الدنيا لا تمنح شيئًا إلا وأخذت مقابله شيئًا أكبر وأغلى.

وأنا غير مستعدة أبدا، لأن أعيش قصة خذلان أخرى، وليست لدي القدرة لانهيار آخر يأخذني معه إلى الدرك

الأسفل من الجحيم النفسي، لمجرد أني تسرعت، أو أرغب في التغيير وكسر الدائرة المظلمة التي حاصرت نفسي بداخلها.

أو لأن وجود عاصم بقربي يفقدني توازني وحسن تفكيري.

فلا يمكن أن نكون على يقين تام من كل شيء في حياتنا، وبعض القرارات الصحيحة قد تقودنا لنهايات خاطئة لو تسرعنا في اعتناقها، فما في الغيب لا يمكن الاطلاع عليه أو تغييره مهما اجتهدنا، لذا علينا أن نجتهد كي لا نندم في وقت لا ينفع فيه ندم أو تراجع .

كانت فترة صعبة، ولكنها كانت أساسية وواجبة، فقد تغلبت فيها على تلك المراهقة الحالمة العطشة لقربه واهتمامه، والتي استسلم عقلها لرغبة قلبها دون مقاومة.

ودرست الأمر بشكل احترافي كامل جعلت عقلي فيها هو الحكم، حتى تكونت قناعتي، وأبصرت جميع

جوانب الأمر بكل حكمة، وهذا جعلني أكثر راحة، وسعادة في تعاملي معه.

والأمر الذي أصبح جليا للجميع بعدها، ولنفسي قبلهم، أن التغير الهائل الذي أصابني، قد حولني لشخص أفضل، فلم أعد أنا تلك المتجهمة التي لا ترى شيئًا في الوجود إلا أخطائها.

عادت سلمى القديمة لتبعث من قلب الرماد، عادت تلك الحالمة، بقلب أخضر منشرح ومنفتح على الحياة، عادت لتحب وتحن، وتكتب قصتها الحالمة من جديد في سجل العاشقين.

بل وشعرت وقتها، بأنني ولدت على يدي عاصم من جديد، وتفتحت من جديد أزهاري في جنته، حتى أنني أصبحت أرى نفسي أكثر جمالا وفتنة، وأكثر إقبالا على الحياة، وكأنما الحب هو الإكسير السحري، الذي يُحيي الأرواح، ويزين الأجساد، وينير الوجوه، ويجعلنا نرى العالم أكثر رحابة.

دراستي للأمر، وأعتناقي لفكرة تحكيم العقل أراحتني كثير، وجعلت خطواتي نحو عاصم أكثر ثقة واتزانا، حتى أني لم أعد أقف أمام قلبي الذي كان يستعر من الشوق له، ولم أعد أنصت لذلك الصوت الكريه بأعماقي، الذي يحذرني طوال الوقت من مغبة الاستسلام لقلبي.

وفي مكالمتنا التالية أدركت أن كل رحلة هروبي المليئة بالأشواك هذه، كانت مجرد خطوات متعثرة، في طريقي للعثور عليه.

العثور على رجلي الذي طالما حلمت به، وكنت أتمناه من الله والدنيا.

فارس الأحلام الذي اختطفني من نفسي وحزني وغربتي، وبدل كآبتي سعادة، وغربتي إلى وطن.

القدر ..

والنصيب..

ودعوات أمي وأبي..

تشكلت كلها في هيئة عاصم الوسيمة، الذي سحرني وانتشلني من دوامة الحياة المظلمة ومن جحيمي النفسي، وجعلني أرسو بعد رحلة طويلة شاقة ومعتمة، على شاطيء الحب.

وطوال الأسابيع التالية، كنت أنام على صوته وأستيقظ عليه، وأنهل من نهر حنانه حتى الارتواء.

كانت عتاب أول من أخبرتها عن عاصم، وأكاد أجزم أنها كانت أسعد مني، عندما علمت بهذا الخبر السعيد والمفاجيء في نفس الوقت، حتى أنها داعبتني قائلة:

- "بركاتك يا شيخ عاصم".

يومها ضحكنا كثيرا، وتحدثنا حتى الصباح، برغم أن صغيرها آسر، لم يتوقف عن البكاء وإزعاجها لحظة واحدة، ولكنها كانت معي، بكل كيانها وتركيزها واهتمامها، كما تعودت من توأم روحي.

لقد تقاسمت معي عتاب حزنًا كثيرًا، فليس أقل من أن تشاركني فرحتي.

استسلمت في هذا الوقت لعاصم، ومنحته دفة حياتي وقلبي، وبرغم شخصيته القوية، وصرامته، ونزعته للسيطرة، إلا أنه كان معي حنونا بشكل كبير، فهو كان يتحرق مثلي للحب، وكان بداخله مخزون هائل من المشاعر المحرقة؛ أغرقني بها.

فمنحني اهتمامه ولهفته جرعة حب مركزة أسكرتني، وسحرتني، فملكني بحبه وحنانه، فلم أعد مالكة لزمام قلبي، ولم أعد أشعر بالزمن.

كانت أصعب لحظة عاصرناها معا هي لحظة عودته إلى مصر، أقسى لحظة مررت بها في حياتي.

في هذا اليوم الصعب، ظهر حبه الجارف لي، فقد ترك كل شيء في يده، وتفرغ لي وحدي طوال اليوم.

قضينا معا يوما ساحرا، لم ينغصه علي إلا انقباض قلبي وعودة هواجسي ومخاوفي، فقد كان سندي

الوحيد، ودرعي أمام تلك الأيام التي أقاتل فيها لأصلح ما أفسدته من قبله.

كنت خائفة من ابتعاده، ومن نفسي، متوترة من نظراته التي تخبرني أنه يحيا نفس التوتر والقلق.

ويومها بعث لي رسائل عديدة بأنه بجواري، ولن يتركني، مهما فصلتنا المسافة والزمن.

وفي نهاية اليوم أوصلني إلى سكني بسيارته، وصمم ألا أذهب معه لأودعه في المطار، فهو لا يريد لقصة حبنا أن تبدأ بوداع حتى لو كان بعده لقاء.

كان تصرفا قاسيا منه يومها، ولكني أغبطته عليه، فلم أرغب في أن يكون آخر ما يراه مني قبل سفري، هو دموعي.

وقبل أن يغادرني قبل باطن يدي، وأخبرني أنه سينتظرني، وبعدها لن يكون هناك فراق.

تحاملت على نفسي وقتها، وكتمت لوعتي ودموعي بأعماقي، حتى وصلت لغرفتي، وبكيت كما لم أبك من قبل، وأنا أشعر بأن هناك فراغ رهيب في روحي، ثم أغمضت عيني، ومن وسط دموعي قلت:

- "أحبك يا عاصم ..أحبك يا حبيبي.. ولن أتأخر عليك كثيرا.. حبيبتك لن تستطيع أن تحيا بعيدا عنك أبدا".

وبعدها مضت الأيام والأسابيع تجرجر في روحي وتختبر تحملي وصبري، ثم جاء يوم العيد، اليوم الذي سأعود فيه لبلدي وحبيبي، وأستعيد فيه روحي الضائعة.

وعندما خطوت بأقدامي إلى الطائرة المغادرة، لم يكن في عقلي إلا تلك اللحظة التي قبل فيها يدي، وقال لي سأنتظرك.

كل خلية في جسدي كانت تنتفض من اللهفة والشوق والحنين إليه، وكأنه لم يغادرني يوم واحدا.

وطوال رحلة الطائرة، لم تفارق عيني ساعتي، وأنا أحصي الدقائق والثواني، غير مصدقة أني في الطريق إليه، وأنني يمكن أن أتعلق بإنسان مثلما تعلقت بعاصم.

ولم يخذلني عاصم في هذا اليوم الاستثنائي، بل جعله أهم وأجمل يوم في عمري.

ومقدار السعادة التي أجتاحتني في هذا اليوم الفريد، لم أشعر بها في حياتي قط.

لم يكن فارس الأحلام فقط، بل صانع الأحلام ومحققها.

كل ما تخيلته عن هذا اليوم، وما خططته له، لم يكن بجانب ما صنعه لي شيئا، فأن تعود للوطن، لتجد وطنا بداخل الوطن ينتظرك، هو شعور لا يمكن وصفه أو تخيله.

لقد توقعت أن ينتظرني أبي في المطار، ليقلني إلى المنزل، وهذا ما كنت أرتبه في عقلي، أن أجد أبي في

استقبالي بعد أن هاتفته وأخبرته بموعد حضوري، وبعدها أقضي معهم بعض الوقت، وفي المساء أتزين وأذهب للقاء عاصم، ولكن المفاجأة أن أبي لم يكن هناك، وكان بديلا عنه عاصم.

عندما رأيته تجمدت في مكاني مذهولة، ودق قلبي في قوة، حتى كاد يخرج من صدري ليذهب إليه.

واجتاحت جسدي رعشة عظيمة، حتى كدت أفقد توازني وأسقط على الأرض من الصدمة، وكل خلية في جسدي كانت تنتفض من الشوق والسعادة، والحنين، واللهفة، والمفاجأة.

كدت أن ألقي حقائبي وأندفع نحوه، عندما وجدته هو أمامي يحمل باقة من زهوري المفضلة، وينظر لي بعين فيها كل حب الدنيا، قبل أن يقول بصوت أتعبه الشوق:

- "نورتي عالمي كله".

ساعتها لم أمتلك نفسي، وأنا أقبض على باقة الورد، وأقبله بعيني، وأقول بكل شوق الدنيا:

- "بل أنت من أنرت كوني كله، وحياتي كلها يا أجمل عاصم".

وبعدها أخذت أنظر حولي بحثا عن أبي، وفهم هو ما يدور في عقلي فقال وعلى وجهه ترتسم ابتسامة عابثة:

- "أبوك لن يأتي اليوم.. عتاب قامت بالواجب.. ورتبت هذا اللقاء".

لم أفهم كل هذه الألغاز، أنا التي لم أتجاوز أثر المفاجأة برؤيتي له في المطار بعد.

فأخبرني بشكل سريع أن عتاب حدثته على أحد مواقع التواصل الاجتماعي، دون أن تخبرها لتتعرف نوع الشاب الذي سيرتبط بتوأم روحها، وصارا من وقتها أصدقاء.

وأنه عندما أخبرها أنه يرغب في لقائي في المطار، أخبرت أبي أنها هي من ستقلني من المطار مع زوجها لأن موعد الطائرة قد تأخر، وأنه اقتنع بصعوبة.

في هذا الوقت لم ألق بالا لما أخبرني به، فم أكن في حالتي الطبيعية، فلن أستطيع لوم عتاب على ما فعلته من أجلي، ولا على تلك الهدية التي لا تقدر بثمن بلقائي بعاصم.

وخرجنا من المطار متعانقي الأيدي، ولم يكن هناك من هو أسعد مني على الأرض في هذه اللحظة.

وعندما جلست بجواره في سيارته، نظر لي بكل شوق ولهفة الدنيا، وقال وابتسامته تنير روحي:

- "هل تسمح لي أميرتي، بأن أخطفها من العالم لساعتين.. أبوك يعلم أن الطائرة ستتأخر عدة ساعات، فلن يثير غيابك قلقه.. لقد رتبت مع عتاب كل شيء؟".

قبضت بيدي المتوترة على يده اليسرى بامتنان، وأنا أشعر بنفسي في عالم آخر، وقلت في لهفة:

- "أنا ملكك العمر كله".

وكأنها كانت المرة الأولى التي أزور فيها بلدي. كل شيء كان مفعم بالفرح والألوان.. كل مكان ذهبنا إليه كنت أراه وكأنني أشاهده للمرة الأولى في حياتي.. السماء كانت صافية، والنيل رائق، والناس أرقى ما يكون.

لقد أنعكس ما بداخلي من سعادة على كل شيء، فعشت ساعتين، وكأنني في حلم جميل لم أرغب لحظة واحدة في أن ينتهي.

وكأي شيء مصيره إلى زوال، انتهت الساعتان بسرعة لم أتخيلها، ووجدت نفسي في منزلي، حيث أبي وأمي وعتاب، وعاصم، وأمه وأبيه.

كانت مفاجأة مذهلة.

لقد رتب عاصم كل شيء، وتولت عتاب التي تركت صغيرها عند أمها، إعداد كل التفاصيل في تلك الفترة التي قضيتها مع عاصم بعد عودتي.

واكتشفت أنا بعدها، أن ما قصه علي عاصم في المطار لم يكن صحيحا، فهو من رتب كل شيء، وليست عتاب، وبرغم ضيقي من كذبته البيضاء هذه، لم يكن في الوجود من هو أسعد مني.

كانت أجمل مفاجأة حدثت لي في حياتي، خاصة عندما أخبرني عاصم بأنه، لم يرغب في أن نخسر لحظة واحدة إضافية نقضيها بعيدا عن بعضنا البعض، بعد الوقت الصعب الذي مضى عليه بعد أن تركني في دبي.

ولن أستطيع أن أصف لكم شعوري أو ذهولي، بعد قراءة الفاتحة، وهو يضع دبلته حول إصبعي، وأنا أضع دبلتي حول إصبعه.

كان الأمر جنونيا ويفوق الخيال، ولكنه كان أروع ما يكون.

لم يضع عاصم لحظة واحدة كما أخبرني منذ سبقني إلى مصر، وتعرف على والدي، وعرف والديه عليهما،

وبرغم كون الأمر خارج عن الطبيعة والأعراف والمألوف، ولكن أهلي تقبلوه بعد أن جلسا مع عاصم ووالديه، وأدركا معدنهم الطيب، وشدة حب عاصم لي.

لابد وأن عاصم قد استخدم شخصيته المسيطرة، القادرة على إقناع الحجر بأنه حفنة من الماء، ولابد أن لهفة أبي على الفرح جعلته يتقبل الأمر، لأنه في مثل هذه الأمور لا يتحرك إلا وفقا للعرف والأصول.

لقد تآمر الجميع علي من أجل سعادتي، ولا أعرف كيف أشكرهم!.

كانت ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة..

ولم تتركني بعدها عتاب لحظة واحدة، وحتى الصباح لم أكن مصدقة أن ما حدث قد حدث، وأنه أصبح خطيبي، وأننا قطعنا هذا الشوط الطويل في قصتنا.

وحتى أشرقت الشمس جلسنا نتحدث، ونتضاحك، حتى سقطت عتاب نائمة أمامي بعد أن هاتفت أمها واطمأنت أن آسر قد خلد للنوم، وجلست أنا وحدي

يجافيني النوم من فرط السعادة، أسترجع كل ما حدث طوال اليوم الذي انحفرت كل تفاصيله في روحي.

وعندما غلبني النوم، كنت أحتضن بيدي اليسرى يدي اليمنى التي تحتوي على دبلته.

وظللت أشكر الله في حلمي على كل هذه السعادة المفاجئة.

(4)

يقولون أن أكثر أيام العمر تعرضا للضغوط والمشاكل، هي أيام الخطبة، ولكنها مرت علي كحلم جميل، برغم انشغالنا في تأسيس شقتنا، وعش الزوجية، الذي سيضمنا في وقت قريب.

كل لحظة قضيناها معا، كانت ترسخ بداخلنا مشاعر مفرطة من العشق والشوق والحنين والأمان.

كانت المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بأنني لست وحدي، وبأن أيامي ليست مجرد وقت يمضي لتلتهم من عمري وروحي، بل كانت شموسا تضيء طريقا نقطعه سويا حتى نجتمع تحت سقف بيت واحد.

أذكر جيدا ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه معا لننتقي غرفة الأطفال، اخترت أنا غرفة تحتوي على سريرين أحدهما على شكل سيارة حمراء اللون والآخر على شكل قوقعة جميلة.

الأول لطفل ذكر، والآخر لأنثى، ولكنه أصر على إحضار سريرين مزدوجين، وأخبرني أنه يريد أربعة أطفال، ولو أكثر لن يمانع، فهو يرغب في تكوين أسرة كبيرة، لأنه ابن وحيد.

يومها تناقشنا كثيرا، وتجادلنا أكثر، ثم رضخت لحلمه، فهو إضافة لحلمي على كل حال.

كنت منتشية في ذلك اليوم من السعادة، ومن الحلم الذي صار قاب قوسين أو أدنى من التحقق، حتى أننا اخترنا سويا أسماء أطفالنا:

جودي وضحى، وسمير وأيمن.

لدرجة أني بدأت أتخيل ملامحهم، وأصواتهم، وسجلت أسماءهم في دفتر يومياتي الجديد، الذي خصصته لعاصم وحده، بل ورسمت قلبا كبيرا بداخله اسمي واسم عاصم، وحوله اسم كل واحد من أولادنا في نجمة بلون مختلف.

الأحلام تتراكم، وروحي تحلق في سماء جنة خازنها عاصم، والوقت يمضي بسرعة لا يستوعبها عقلي، وإن كان قلبي ينجرف معها دون هوادة.

كل هذه السعادة المتعاظمة جعلت بعض القلق يتسلل إلى روحي كعادتي، فلم أتوقف يوما عن الصلاة والدعاء ليتم الله كل شيء على خير، وليصمت ذلك الصوت الكريه بأعماقي.

فمازال جزء مني لا يصدق، أن كل ما أمر به، هو واقع، وليس حلم جميل، وبيني وبينكم، لو كانت هذه الأيام التي قضيتها مع عاصم، هي نصيبي من السعادة في الحياة، لاكتفيت، ولشكرت الله عليها حتى ألقاه.

وطوال أيام الخطبة، لم أدخر جهدا لأبادل عاصم السعادة بألف، والحب بعشق، والأشواق باللهفة، بل وتحولت بكياني لجهاز تسجيل عظيم، كنت أحفظ كافة التفاصيل والتواريخ والمواقف والأفعال وردودها.

فتاريخ السعادة مع من تحب، يجب أن يدون، ويحفظ في أعمق مكان بأرواحنا، فاللحظة السعيدة التي تنقضي، تمضي إلى غير رجعة، وعلى أثرها أن يبقى في ذاكرتنا ليعطر أرواحنا إلى الأبد.

أتذكر انبهار عاصم بوجودي حوله، لهفته الدائمة، ودهشته، وحديثه العاشق، خاصة وهو يقول لي:

- "أعتقد أن كل ألم عاصرته في حياتي، كان تمهيدا لما أعيشه الآن.. كي أعرف معنى السعادة والرضا في وجودك.. كي أعلم أن الحياة قد تتأخر علينا في منح السعادة لسبب واحد فقط.. أنها تدخر لنا المعجزة.. والنعمة التي لن تفوقها نعمة أخرى.. فأنت يا حبيبتي نعمتي، ومعجزتي، ومكافأة الله لي.. وليتني منذ ولدت كنت أعلم بوجودك.. فوقتها كنت سأنتظر العمر كله.. مقابل أن أحظى بلحظة سعادة واحدة بين يديك".

لا يوجد خمر في الوجود يسكر مثل كلماته، ولا أرق من كلماته التي يريقها على أذني وروحي.

دودة الكتب حرامية

وكلما تذكرت هذه الأيام، كنت أدرك أني أعيش حالة من هستريا الجنون والسعادة المفرطة.

إنه جرعة زائدة من العشق، جرعة تسكر ولا تقتل.

كل شيء أصبح تافها في نظري، الماضي بجراحه وأشخاصه ورحلة هروبي، والحاضر بما فيه من عيون كالرماح تستكثر علينا فرحتنا، وكل أملي وتطلعي أصبح إلى المستقبل.. إلى الجنة القادمة..

وكنت أتحول دون إرادتي إلى ملاك سعيد، وأرسم البهجة على كل من حولي، فما فاض عندي من بهجة وزعته على الجميع، وبالطبع كانت تشاركني عتاب كل لحظة فرح وتبدل وتحول وجنون.

كنت أغرق في بحر من السعادة، وكانت تدفعني إليه أكثر.

لن أخبركم عن كم رقصت في يوم عرسي، وكيف أشعلت اليوم، حتى شاركتها كل فتيات ونساء العائلة الرقص.

دودة الكتب الحرية

ويومها رقصت مع عاصم كما لم أرقص من قبل.

وبينما أنا بين يديه ونرقص رقصتنا الأولى، أخبرني هامسا:

- "كنت أعتقد أني لو ضممتك إلي كما يحدث الآن فإنني سأنتشي، وأمتليء وأكتفي، ولكن كل لحظة أقترب فيها منك، تجعلني أكثر لهفة وتعطشا لقربك".

يومها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أضمه إلى صدري وسط الناس، ونرقص على أنغام أغنيتنا المفضلة، حتى فاضت أرواحنا بالفرح، وتلامست مع النجوم، وصرنا روحا واحدة.

وعندما أغلق علينا باب بيت واحد، أدركت أن الحب هو بداية للحظة أسطورية مذهلة كهذه.

وأن السعادة قد تتحول لمخلوق من لحم ودم.

وأننا وحدنا، كون يفيض بالمشاعر.

دودة الكتب حرامية

(5)

التعاسة وأنت برفقة من تحب، هي تعاسة مضاعفة، ومهلكة، وأنا موقنة أنها تعاسة أبدية لا تنتهي مهما حاولت تخطيها، لأن مسببها لا يمكن أن تبتعد عنه، أو تفكر مجرد التفكير في عدم وجوده في تفاصيل يومك.

إنها الحلكة الكثيفة بعد الضياء، والتي لا يمكن أن تتكيف معها، مهما حاولت أو قاتلت في سبيل هذا.

التعاسة هي الحزن حين يختمر، فيلتهم كيانك، ويتركك نهبا للأفكار والتفسخ الروحي، هي آخر حدود الحزن، وما قبل الموت بخطوة.

والتعاسة هي ما أحياه الآن مع عاصم.

أعرف جيدا أنها مقدمة صادمة ومحزنة بعد كل ما قصصته عليكم من مظاهر للفرح والحبور، وما أخبرتكم به عن تحقق المعجزات، وعن مقدار السعادة

التي غلف بها الحب أيامي، وعما آلت إليه قصتي حتى الآن.

وهذا لأنني مازلت بنفس درجة الحماقة لم أتغير، وأفترض بكل سذاجة أبدية واستمرارية كل شيء تحقق أوله في دنيا زائلة.

ولأنني لم أعرف أن تحقق إحدى المعجزات، لا يعني أن اختبارات الحياة قد انتهت، وأنه قد يكون بداية للوقوع في التيه، وعمق مآسي هذه الحياة.

السعادة التي أخبرتكم عنها كانت حقيقية لأقصى مدى، استمرت معي لفترة من الزمن، قبل أن تبدأ الصدمات المؤلمة.

فبعد أن قضينا معا عدة أشهر في نعيم متصل، وتبادلنا كؤوس الغرام والرغبة، وأطفأنا بعضا من شوقنا المستعر لبعضنا، وتحقق أول أحلامنا، تأخر كثيرا تحقق الحلم التالي، الذي كنا شغوفين إليه بشكل لا يمكن تخيله.

وهو أن أنجب، وأن تمتليء تلك الأسرة الخالية بالأطفال الصغار، زينة الحياة الدنيا.

في البداية لم يكن الأمر مقلقا لدرجة كبيرة، وأخبرت عاصم أن دورتي الشهرية غير منتظمة، وأنها تتقدم أحيانا، وتتأخر أحيانا أخرى، وأن علينا الصبر.

والصبر مر..

ومرارته انتقلت إلى كل شيء بيننا..

وشعرت بعاصم يتغير بشكل جذري بعد حديثي معه، وأنا أمامه ضعيفة واهنة هشة، لا قدرة لي على المواجهة فما يطلبه ليس بيدي، والأطباء يطالبوننا بالتحلي بمزيد من الصبر، فالأمل ضعيف.

وعاصم أخبرني في إحدى نوبات غضبه بأني خدعته لأني لم أخبره بمشاكل دورتي الشهرية، ولأنني لم أجر فحوصات ما قبل الحمل.

صحيح أنه اعتذر بعدها عن حديثه الجارح هذا، ولكنه كان قد صنع بروحي شرخ كبير، جعلني أفكر وكلي رعب، أنني لم أعرف عاصم جيدا، وهذا أحالني للسؤال المخيف الذي لم أجرؤ على طرحه وقتها:

هل لو كنت أخبرته أو علم بالأمر مبكرا هل كان سيختلف الأمر معه؟

كانت المرة الثانية التي أخوض فيها مثل هذه التجربة الموجعة والمهينة في ذات الوقت، وأشاهد قلبي على مذبح التضحية، بعد أن ظن أنه قد آن له الآوان ليستريح.

وأرى الحب يتبخر، ووهج العلاقة يتلاشى، والشغف ينتهي، والنظرات تنطفئ، وأنني امرأة بلا جدوى، وأن بؤس العالم كله قد تم قطفه من بستان الوجع لي وحدي.

كانت محنة عظيمة، وحينما تشتد محنتك مع من تحب، وتجد نفسك أمام عواصف الحياة وحيدا، بلا

درع أو سند، أو من يرثى لك في مصيبتك.. تشعر بنوع من الخيانة، وهذا يورث خيبة أمل عظيمة.

كانت أيام باردة في كل شيء، التعامل، والمشاعر، والحديث، والطقس.

كنت أكره البرد الشديد في هذه الأيام، فهو يزيد من معاناتي، ويعمق بداخلي إحساس الوحدة، كما أنه كان يجبرني على ارتداء العديد من الثياب فوق بعضها، والالتحاف بالعديد من الأغطية، ويرغمني على التفكير في عاصم الذي ينام وحيدا في الغرفة المجاورة، بعد أن حدثت بيننا مشاجرة عنيفة وارتفعت أصواتنا لأسباب تافهة.

وقرر أن يعاقبني بالنوم في غرفة الأطفال، التي صارت ملجأه بعد أن تأكد أخيرا، أنني السبب الرئيسي لعدم الإنجاب.

طعنة عظيمة لأحلامه، ولأنوثتي ولحلمي بالأمومة.

لقد ذهبت جودي وإخوتها إلى الأبد، ولم يعد هناك إلا أم بلا جودي، حلم آخر يذوي، ومعه يذبل كل حلم آخر تمنيته.

العجز مر، والأمَرُّ منه هو الخذلان، وقد خذلني عاصم، وتركني أدور في دائرة أبدية من الانكسار، بدلا من أن يقف معي في مصابي.

لقد حاولت تخطي هذا الواقع المفجع طوال الأشهر الماضية، ولم يكن الأمر سهلا، بل كان فشلا مكتمل الأركان.

كنت كالمصلوبة في أرض جدباء، نسيها مطر الأمان، وغشيتها سحب الهموم، وعاصم مازال يعاقبني على فشلي هذا، وعلى ذنب لا يد لي فيه.

الموجع أن عاصم لم يكن بهذه القسوة من قبل، وهو شيء أنا عاجزة عن استيعابه بشكل كلي، ولا أسامحه عليه.

إنني أخاف أن أتوقف يوما عن الغفران له، فساعتها ستنتهي حياتي معه، وأنا أعشقه كثيرا، ولا أتخيل حياتي من دونه.

فهل يتخيل هو هذا..

هل يتمناه؟

هل هو قادر عليه بالفعل؟!!

أخشى الإجابة، كما أخشى الموت وأكثر.

كما أن جسدي يؤلمني دون داء أو مرض. الوقع النفسي مروع، وأنا أكثر من يدرك هذا بحكم مهنتي.

أشعر بكل خلية في جسدي تحترق وتطالبني ببعض الرحمة، ولا أعرف كيف أجبر زوجي على أن يرأف بجسدي وروحي، وقلبي الذي ينفطر منذ هجره، وقرر أن يبيت كل منا في غرفة منفصلة.

كم أشتاق لحنانه ولمسته وضمته.

لا شيء أصعب على الحالمة، من ضياع جزء من حلمها، لا تملك مهما سعت أن تحققه أو تصل إليه، ولا شيء أقسى من الهجر على امرأة متزوجة.

ليل الشتاء طويل، وليل الهجر أطول، والنهار بعيد، والأفكار تحرقني، وترهقني جدا، وهجره لي عقاب مضاعف، وكأن الأمر بيدي وأنا لا أرغب به، كل ما يحدث يدمر أعصابي، ويفقدني ثقتي في نفسي وفي كل شيء.

لقد توقعت أن يكون بجواري، ويواسيني، ويأخذ بيدي، ويخبرني أنه لا يريد من العالم سواي، وأنه راض بقضاء الله وقدره.

كنت أنتظره وحده دون العالم، وكان أول من خذلني.

إنه لم يقترب مني منذ شهرين كاملين، وهو الذي كان يتحرق شوقا لي طوال الوقت، ولم يكن يمنعه أي شيء عني، وكأنه يرى أن الزراعة في أرض جدباء نوع

من الحماقة، والأفضل أن يتركها لكل شيء ينهش فيها.

لقد عرضت عليه الطلاق، وهو رفض لأنه كما يقول يحبني، إنني أذكر نص جملته:

- "إنني أحبك يا سلمى.. أنت روحي.. الأحمق فقط من يتخلى عن روحه، ليحيا باقي حياته بين الأموات".

ولكن من قال أن الهجر ليس بطلاق.

من قال أنه أقل بشاعة من الموت حيًا، وسط هذا الصقيع النفسي الموجع.

إن كل فعل يقوم به يدل على أن كل شيء جميل بيننا قد تهاوى، وأن الرباط الذي كان يجمع قلبينا قد انكسر، وأن العهود لا قيمة لها أمام المحن من هذا النوع.

لا أعرف لمتى ستستمر معاناتي، ولأي مدي سيتحمل، أو أتحمل أنا؟!

إن أفعاله جميعها تعني أن النهاية وشيكة، وكل هذا الانتظار يوترني، ويقتلني.

والموجع أكثر، أن شوقي إليه لم يخمد، وحبي برغم بروده مازال مستعرا.

لقد طلبت الطلاق رغما عني، وأنا أعرف أنه لو لبى رغبتي في هذا الأمر، لمت حسرة وكمدا، إنها رحلة ستدمرني لو خضتها، لن أتحمل الطعنة هذه المرة، ومنه هو بالذات، إنه لن يكون مجرد كسر، بل موت محقق.

كل ما أحتاج إليه الآن أن يضمني، أن يلفني بذراعيه، ويخبرني أنه يحبني، ولن يتخلى عني مهما حدث، ليطرد برد الأفكار وخوف الفراق، ورياح الضياع التي تعصف بروحي.

أعرف أن شجاره الدائم معي في هذه الأيام، كان يدور كله لأسباب بعيدة عن الحمل والإنجاب، ولكني متأكدة

أيضا أنه هو السبب الوحيد الذي من أجله يختلق كل هذه الأسباب الوهمية.

الحقيقة أنها محنة وابتلاء عظيمان، لم أتوقع يوما أن أخوضهما، ولكن لله الأمر من قبل ومن بعد.

لابد من جلسة جادة لحسم كل هذه الأمور فأنا على وشك الانهيار.

عقلي يكاد يحترق من زخم الأفكار، وجسدي المنهك يصرخ في عقلي ليهدأ ويستكين ليحظى ببعض الراحة دون فائدة..

أصبح المنوم هو رفيقي الدائم، ووسيلتي للهروب، وأقراص الاكتئاب التي أتناولها دون معرفته لا تجدي بتاتا، وتفقدني تماسكي على عكس ما هو متوقع منها.

والمخيف أن تأثير المنوم ومضادات الاكتئاب يقل مع الوقت، وأكاد أتحول لمدمنة، ولكنه آخر ما يشغل عقلي الآن.

فالشرخ الذي بأعماقي لا شفاء له، والحرب التي أخوضها، تلوح من بعيد رايات هزيمتها لي.

روحي خاوية ككوخ هجره سكانه، وعقلي ساحة لمعركة محسومة لعجزي ونقصي. والآلام مريعة، والصمت من حولي صاخب، والفوضى تسكن أجزائي، إنني أنهار، وهو نائم، جرحي مستيقظ وهو غافل، أم يعد نفسه للقرار الكبير.

إنها الرابعة والنصف صباحا، وأنا كعصفور أرداه التعب، أتقلب على فراشي، كمن يتقلب على الجمر.

أما من نهاية لكل هذا العذاب؟!!

لابد أن أنام فعندي عمل كثير، وهو شيء لا يمكن أن أهرب منه، بل هو طوق نجاتي الذي أهرب إليه في هذا الوقت العصيب.

وعملي شديد الخطورة، لأنه يؤثر على حياة الآخرين، لن أقترف ما قمت به من قبل، روان أرتني النتيجة بعيني، وضميري لن يتحمل خطأ آخر.

لابد من أن يكون ذهني صافيا، فهناك من هم بحاجة ماسة لي لأساعدهم في عبور محنهم مع هذه الحياة شديدة القسوة، وعملي أن أساعدهم في تخطي هذه المحن.

يقولون أن رؤية مصائب الناس تهون مصائبنا، أتمنى هذا بالفعل.

لم أتوقع عندما فتحت عيادتي لأول مرة، أن يكون الإقبال عليها بمثل هذه الصورة الكبيرة، إنها مؤشر واضح دون شك على أن المجتمع المصري ينهار من الداخل ببطء وثقة، وفي لحظة ما سيكون الانفجار.

الأمراض النفسية تجتاح المجتمع المصري كالسرطان، وخاصة بين النساء مع ذلك الكم الهائل من الضغوط التي تواجههن، سواء على الصعيد النفسي أو العاطفي أو الاجتماعي.

كلهن مكبوتات، منهكات، بحاجة للبوح والمساعدة للشعور بالأمان.

الحياة بالنسبة لبعضهن قد توقفت تماما، فالحياة مع الشك والخذلان جحيم مقيم، وهن يأتين إلي من أجل محاولة أخيرة، لإقناع أنفسهن، بأنه مازال بداخل أرواحهن جزء حي ينبض وعلى قيد الحياة.

جزء مازال لديه قابلية للتصالح مع الدنيا، وعبور دوامة الانكسار، فلا أحد يطلب العلاج إلا إذا تمكن المرض منه، وأدرك من شدة الألم أنه غير قادر على مساعدة نفسه.

إنني أساعد الجميع وغير قادرة على مساعدة نفسي !.

إنني بحاجة ماسة لقبضة عملاقة، تهز حياتي، أو تعيد دورة الزمن للخلف، أو تمسح ذاكرتي، كي أعود لنفسي التي فقدتها في خضم بحثي عن الحب والأمان.

كل ما أملك مقابل لحظة راحة بلا أفكار كئيبة أو ألم.

كل ما أملك مقابل طفل يعيد السعادة لحياتي.

ويعيد لي عاصم من قلب الأحزان.

(6)

عندما عدت لمنزلي في هذا اليوم الممل الذي بات يشبه كل أوقات حياتي هذه الأيام، كانت روحي مثقلة بهمومي وأفكاري، ونفسيتي قد صارت في الحضيض، وأثرت على كل شيء في حياتي حتى عملي ومرضاي.

كانت الكآبة تغمر وجهي، والحزن يقطر من كل خلية في جسدي، فخلال الأشهر الماضية، باتت الأمور تتعقد بشكل مفزع، والحياة تصير أكثر سوادا، وكل الحلول التي أفكر فيها لا تقود إلى شاطيء نجاة.

نعيش أنا وعاصم تحت سقف بيت واحد كالغرباء، اثنان ينتظران تلك اللحظة الحتمية التي ستصل بالأمور إلى نقطة النهاية، وكل منهما ينتظر أن يبدأ الآخر مراسم الوداع، التي أصبحت مع كل البرود الذي غلف العلاقة والتعامل بيننا، وشيكة إلى حد مخيف.

وفي صالة المنزل، لمحت عاصم هناك، قد عاد من عمله مبكرا، ويجلس أمام التلفاز شارد الذهن حتى أنه

لم يشعر بدخولي، ولم ينتبه لي إلا بعد أن ناديت عليه عدة مرات، وسألته:

- "كيف حالك يا عاصم .. هل أعد لك طعام الغداء؟".

انتبه لي فقال بصوت شارد:

- "بخير حال يا دكتورة.. شكرا لك.. لست بجائع".

هذا هو حالنا الآن، لسنا كالأحباب نتبادل مشاعر الحب، ولا كالغرباء نتعامل بود، بل هو شيء أقرب للجفاء والنفور الحذر.

وقتها دارت في رأسي عشرات الأفكار المتضاربة، ومنها أن وقت المواجهة قد حان، وأنني علي ألا أستسلم أنا الأخرى للواقع المؤلم، وأن أقاتل من أجل من أحب، لن أرتكب خطئي السابق مع زياد، ولن أترك كل شيء ليضيع، ولكنني قررت أن أؤجل كل هذا لحين أبدل ملابسي وأحظى بدش دافيء، وأستعيد بعض نفسي بعد عناء العمل، وعناء التفكير.

قرأت ذات مرة مقولة مترجمة تقول: إن الحب عشرة أجزاء،ثلاثة منها للحب، وسبعة لغفران الخطايا.

وأنا مستعدة أن أغفر له خطيئة تخليه عني في محنتي، مقابل أن يمنحني شعور صادق، بأنني مازلت أمثل له شيئا حقيقيا في هذه الحياة، وأنه مازال يراني حبه الوحيد الذي لن يتخلى عنه لأي سبب.

سأغفر كل شيء من أجلك ياعاصم.

سأغفر كل شيء، فقط لا تتركني.

وبالفعل أنهيت ما نويت عليه، ثم صنعت لعاصم فنجانا من النسكافيه بلاك كما يفضله بدون سكر، وصنعت لنفسي فنجان آخر من القهوة التركي السادة ليساعدني على التركيز، ووضعتهما على الطاولة أمامه، وجلست وأنا أتأمل وجهه النحيل لعدة لحظات.

لم يكن هو عاصم الذي قابلته للمرة الأولى في حفل السفارة، والذي تحايل حتى انفرد بي ليعلن أعجابه

بأميرته الفرعونية المعجونة بماء النيل، وهو يشير بكل لطف وذكاء لرغبته في التقرب مني.

لم يكن هو عاصم المفعم بالحياة والحماس الذي أحببته، والذي كان يفرض شخصيته المسيطرة الحاسمة على كل تفاصيل حياتي.

بل مجرد شخص مهزوم انطفأ بريق عينيه، وصار شاحبا كالمرضى، وأقل اعتناءا بمظهره، وظهر هذا في عدم اهتمامه بتهذيب لحيته، وابتسامته الدائمة التي غابت عن وجهه.

إنه مثلي يعاني، وربما أكثر، ولا أملك أي شيء أمنحه له سوى الحب.

فهل يكفي الحب بديلا عن الحلم؟

هل تكفي أحبك بديلا عن كلمة بابا يا عاصم؟

أرحني ..أراح الله قلبك.

إنها معضلة عظيمة، حتى أنا كطبيبة نفسية لا أملك لها حلا سحريا أو سريعا.

ولكني لم أيأس بعد، وقد يحقق الحب المعجزات كما يقولون.

أعرف عن يقين كامل، أن الحل الأقرب للعقل، هو هدم كل شيء والبداية من جديد.

أن يبدأ مع امرأة أخرى غير معيوبة، لا تمتلك أمراضا صحية أو غير مكتوب لها الإنجاب.

إن هذا حقه.

ولكن هذا الحق جارح، وسيكسرني إن لم يكن سيقتلني.

حبي له يجبرني على الوقوف بجواره، وعلى دعمه في محنته، ولكن على حساب ماذا؟

فكرت أن أعرض عليه أن يتزوج بأخرى، أن يضم لحياتنا امرأة ستقاسمني فيه، وتشاركني كل تفاصيله!

ولكنه حل قاتل كالانفصال، وربما أكثر.

فماذا لو تعلق عاصم بتلك الزوجة أكثر من تعلقه بي، ماذا لو أحبها بالفعل وهذا حقها؟.

كم سيقضي معي من الوقت، وكم من الوقت سيقضيه معها؟

وهل سأتحمل أنا أن أراه كل يوم ذاهبا للنوم في فراش امرأة أخرى؟.

ماذا لو طلبت منه تلك الزوجة الثانية، أو خيرته في يوم من الأيام بيني وبينها، وهو قد يحدث ببساطة لأنها أم الأولاد؟

من سيختار، وكم ستمنحني قوانين الاحتمالات من فرص؟.

لقد قمت خلال الأشهر الماضية، بإعادة التحاليل والفحوصات، في عدة مراكز شهيرة مختلفة، وأثبتت جميعها أن الطبيب الأول حينما قال أن الأمل ضعيف، كان يحاول أن يقلل من وطأة الأمر على روحي.

التحاليل والفحوصات جميعها، أثبتت أني عاقر، سأعيش وأموت دون أن أنجب أو يكون عندي طفل.

أرض بور كما يراني عاصم الآن.

" هل ستظلين محدقة في وجهي هكذا كثيرا ؟".

قاطع عاصم أفكاري بجملته هذه، فانتبهت وقلت:

- "ملامحك أوحشتني كثيرا.. وأنت تدرك جيدا كما أهيم بها منذ لقاءنا الأول، هل تذكره؟".

نظر نحوي ببرود وقال:

- "أهذا هو وقت البكاء على الأطلال؟".

صدمني رده كثيرا، فقلت بعصبية:

- "ومتى أصبح ما بيننا بكاءا على الأطلال.. هل أصبحت تكرهني يا عاصم إلى هذه الدرجة.. أجب فقد فاض بي الكيل، ولم أعد قادرة على مجاراتك في لعبتك المدمرة هذه".

رمق وجهي للحظات بنفس البرود، ثم قال بطريقة جارحة:

- "أي لعبة تلك التي تتحدثين عنها، أهي لعبة الطبيبة النفسية والمريض، أم لعبة ماما وبابا التي لن تصلح دون أطفال، من يمارس الألعاب على من، انطقي يا هانم؟".

في هذه اللحظة المشئومة أدركت أن كل شيء بيننا قد انتهى إلى غير رجعة، وأن العالم عاد ليقسوا على قلبي من جديد وبشكل أعنف.

لقد أصبح عاصم ينظر لحبي له على أنه لعبة نفسية أمارسها عليه كي نظل سويا، فتعمد جرحي وإذلالي بمصارحته لي بعجزي، وبرغم ذلك حاولت أن أتمالك

أعصابي معه، كي لا أفقد حبه وأحترامه معا، وقلت له والدموع تغرق وجهي:

- "هل أصبحت لا تراني الآن دون الأطفال، ألست سوى وسيلة لتصبح أبا، غير هذا لا مكانة لي في حياتك، هل غاب الحب لمجرد أن الله ابتلاني هذا الابتلاء، متى كان الحب مشروطا بأي شيء، ومتى أجبرتك على حبي أو البقاء معي يا عاصم.

لقد عرضت عليك الطلاق منذ البداية كي أحتفظ بكل ذكرياتنا الجميلة معا، وكما خرجنا بالمعروف نخرج به.

أنا لا ألعب معك ألعابا نفسية، فأنت زوجي ولست مريضي، أنا فقط أحبك، ولا أتصور الحياة بدونك، ولذلك قاتلت دفاعا عن حبي لك خلال الأشهر الماضية، وتحولت بضغطك وتجاهلك لمريضة نفسية أدمنت أدوية الاكتئاب.

كنت أقاتل من أجلك ومن أجلي، ومنحتك الحل، فلماذا تعاملني هذه المعاملة؟".

اضطربت ملامحه، واهتزت شفتاه، وبدا ظاهرا على وجهه ملامح صراع داخلي عظيم، ولكنه لم ينطق، فقلت بصوتي المذبوح، والدموع مازالت تغرق عينيّ:

- "حتى عندما طلبت منك الطلاق.. كنت أطلب هذا من واقع حبي لك، كنت أتمنى أن أمنحك أنا الحل الوحيد المتاح أمامي، لتمارس حقك وتحقق حلمك بالحصول على طفل يحمل اسمك، دون أي ضغوط، كي لا أراك أمامي عاجزا للمرة الأولى في حياتي.

ومن واقع هذا الحب أعيد عليك نفس الأمر مرة أخرى، طلقني يا عاصم .. طلقني فأنت لم تعد تراني ولم تعد تحبني، وأنا لا أستطيع أن أفرض نفسي عليك بهذا الشكل المهين، ولن أقبل أن أحيا مع شخص يحيا معي بحب مشروط، إنني لن أستطيع منحك الأطفال، ولكني أستطيع منحك الحب الذي لن تنطفيء جذوته أبدا، ومن الواضح أن هذا لن يكفي لك.. لتضع حدا لمعاناتي ومعاناتك، وطلقني".

(7)

كانت المفاجأة أكبر من توقعي، وأعظم من تحملي، وبرغم هذا لم أصرخ أو أنهار، أو أقوم بأي رد فعل كما يتوقع من أي أنثى تعيش هذا الموقف الصعب.

بل توقفت دموعي ساعتها من وطأة الصدمة، واحتبس الكلام بصدري، ولم أنبس ببنت شفة، فقط اتسعت عيناي ذاهلة، وأنا أنظر إليه في استنكار وغضب، غير مصدقة ما سمعته أذناي.

وكأنما توقف بي الزمن، وعقلي يحاول أن يستوعب كل هذا الظلام والبرد الذي أحاط بروحي، وغلف كياني كله، مع تلك الكلمة المسمومة التي انطلقت كالرصاصة الغادرة، وأنهت كل ما كان يربطني بعاصم دون رأفة أو رحمة، وأصابتني بتعاسة لا مثيل لها، وأنا أرى آخر جدار استندت عليه في الحياة يتهشم، وكل مخاوفي تتحقق، وكل أحلامي تتهاوى.

حتى عندما حاول عاصم أن يعتذر لي بكلمات لا إحساس فيها ولا معنى لها، دفعته بعيدا عني بكل قوتي، وكل جزء من كياني ينتفض مستنكرا لمسته، أو حتى سماع صوته، بعد أن صار محرما علي، وصورة روان تتجلى أمام عيني لتفطر قلبي أكثر.

إنه ذنبها دون شك..

حرمت أم من أطفالها، فحرمني الله من الأطفال ومن زوجي..

لا ذنب يمر دون عقاب في هذه الحياة..

وأشنع أنواع العقاب هو الحرمان من النعم بعد أن تعيشها، وتعتقد أنها أبدية.

وبكل وجع الدنيا تركته خلفي، ودخلت لغرفتي التي كرهت كل ذكرى حدثت فيها، وقلبي ينبض بعنف، ويداي ترتعشان، بل وكنت على وشك الإصابة بسكتة قلبية، لولا رحمة الله بي، فلا أريد أن أرى شفقته علي، بعد أن نبذني.

وفي غرفتي المغلقة، انتابتني حالة من الذهول المؤقت، ولخمس ساعات كاملة جلست أمام المرآة أنظر لوجهي الشاحب الذي صار أشبه بوجه الأموات، دون أن أدري أين أنا، أو لماذا أجلس أمام المرآة أتطلع إليه في صمت تام.

لقد أتت النهاية في اللحظة التي اعتقدت فيها أنني سأستطيع احتواء كسرته بإيقاظي لمشاعره، وتذكيره بأيامنا الرائعة الراحلة، ووعودنا، وعهودنا التي أقسمنا أن نصونها مهما واجهنا، وحبنا الذي جاء بعد فترة عصيبة ليعوض كل منا عن بؤسه ومأساته.

كنت أتمنى أن يعبر صدمته ويختارني- بل وبكل حماقة لم أتوقع إلا أن يفعل ذلك- فلا يمكن أن يموت الحب بهذه البساطة، بل وكنت أمني نفسي وقلبي، بقصص كثيرة سمعتها وقرأت عنها، عن رجال صدقوا ما عاهدوا عليه نساءهم، ولم يفرقهم إلا الموت.

كانوا رجالا حقا اختاروا الحب، واختاروا أن يكونوا السند، وعبروا مع أحبائهم أصعب المحن، وعوضهم

الحب عن كل نقص في حياتهم.

ثم جاءت الضربة القاسمة!

الحب الذي بدأ بنظرة.. انتهى بكلمة، في الوقت الذي ظننته، هو درعي الذي لا يمكن أن يتهشم أو يتحطم لأي سبب كان.

لم يخترني عاصم، بل تخلى عني بكل بساطة، كأنما يتخلى عن دمية أو جماد لا يشعر ولا يحس.

لم يهتم بمعاناتي أو شعوري، أو حاجتي الماسة إليه، أو شعوري بالضعف والهشاشة.

لم يفرق معه حبي، وانكساري، وعجزي أمامه.

لم يواسني بكلمة تدل على أننا كنا أو مازلنا روحا واحدة كما كان يدعي، أو يمنحني ولو دليل واحد على أن ما بيننا يستحق القتال، أو حتى مجرد محاولة للقتال.

فقط كان يعتذر عن قراره الذي كان قد اتخذه بالفعل بأنانية تامة، وتحين الفرصة التي منحته إياها ليضعه موضع التنفيذ، وكأن الاعتذار أو الأسف كافيان، وهو يذبحني بسكينه البارد.

أنت طالق.

نهاية حقيرة لقصة حب بدأت مشتعلة، وانتهت بطعنة ساحقة هشمت قلبي ومزقته، وكأن كل ما أكنه له من مشاعر لا قيمة له.

وفي النهاية أدركت أن الحب والتفاني الذي منحتهما له، لم يكونا كافيين ليستبدلني بحلمه، على الرغم من أن الأمور لو انعكست، لضحيت أنا بكل شيء من أجله، ولدعمته وصرت سنده، وزوجته وطفلته.

ولكنه اختار نفسه وحلمه في النهاية، بينما أنا كنت مجرد غرض في حياته يمكن استبداله.

ولم يكن الحب الذي اعتقدته أقدس وأقوى رباط في الكون بين عاشقين ضمانا لأي شيء، ولم تكن للوعود

قيمة أمام المحنة، ولم أعد أنا أؤمن بشيء من هذا الآن.

إن ما كسر لن يمكن إصلاحه، وسيظل مشوها إلى الأبد.

لقد تركني وحدي غارقة في ظلامي، تنهشني أشباحي الداخلية، لا أدري كيف سأعيد ترتيب حياتي بعد ماحدث، ولا أعرف كيف سأسترد نفسي من هذا الدمار الساحق، بعد أن أغلق في وجهي كل أبواب الثقة والأمان.

فبعد فعلته الشنيعة هذه، أصبحت لا أرى أمام عيني إلا قبح وبشاعة العالم.

لا أذكر كيف أعددت حقيبتي، ولا من أين أتتني القوة كي أجمع كل الصور التي كانت تضمنا معا، وأمزقها ثم أحرقها.

ولا كيف طاوعني قلبي المهشم، فحذفت كل رسالة أرسلها لي على هاتفي منذ أن تعرفت به، وكأنني أرغب

في محوه من حياتي، كي أمحو معه كل أحزاني ومراسم خذلاني.

ولا كيف تركت له رسالة أخيرة، على لوح الملاحظات الذي أصبح هو وسيلة تواصلنا في الفترة الأخيرة، والذي كان يترك لي عليه كلمات الحب والغرام كل يوم قبل أن يغادر، وقبل أن يعرف أنني عاقر.

فكتبت بحروف نازفة، تعبر عن كيف أراه في هذه اللحظة:

- "كن رجلا إذا وعدت امرأة أخرى من بعدي".

كل هذا فعلته دون أن أذرف دمعة واحدة أو أقوم بأي ردة فعل، وكأن مشاعري تبلدت، وأحاسيسي تحجرت، واعتصرتني الصدمة.

امرأة أخرى ظهرت من أعماقي على السطح، امرأة غاضبة، قانطة، قاسية، تتمنى أن تنتقم لخيانتها والغدر بها.

امرأة هربت منها في دبي، فعادت بكل جبروتها في مصر.

ولدقائق وقفت أتأمل وأودع كل جزء من تلك الشقة التي لن أطأها بأقدامي مرة أخرى، بعد أن صارت محرمة علي.

وفي رأسي نبتت فكرة مخيفة، كانت تنمو مع كل ذكرى ماضية تمر بخاطري، وتجلدني بسوطها البارد.

أن أحرق الشقة بما فيها، حتى لا أترك له حتى رائحة عطري.

كنت راغبة في محو كل شيء وبأسوأ طريقةممكنة.

وكنت على وشك القيام بهذا الأمر العنيف، إلا أن شيئا ما لا أدري كنهه منعني من الخوض فيه.

تأملت الشقة مرة أخيرة، دون أن أجرؤ على الدخول لغرفة الأطفال، وكأني أودع أحلامي وحياتي الماضية، وبكل ما يموج في قلبي من مشاعر السخط والغضب

والنفور، بصقت على أرضية المكان، وأنا أشعر أنه أصبح مكانا مدنسا لا أنتمي له.

وكان من حسن حظي أنه غادر المنزل بعد أن ألقى على يمين الطلاق، وبعد أن قضى على أكثر قلب أحبه في هذه الحياة، كي لا تحدث مواجهة أخرى لا طائل من ورائها.

مواجهة كانت ستزيدني بؤسا وإحباطا وقنوطا، قبل أن أغادر ذلك الجحيم الذي كنت أعتبره بيتي وجنتي.

ولا أدري كيف طلبت أوبر، ولا متى أنزلت حقيبتي، ولا كيف مضى علي الوقت أنتظره على الطريق، لأجد نفسي في المقعد الخلفي، أجلس بوجه شمعي لا يظهر ما بداخلي من هزائم أو وجع.

وأثناء وجودي في السيارة الأجرة، أعاد لي وعيي سؤال السائق متسائلا بطريقته الفضولية:

- "هل أنت بخير؟".

أجبته بكلمات مقتضبة، وأنا أشاهده يتتبع المسار الذي حددته له مسبقا على جهاز تحديد المواقع، وأنا أفكر هل أغير المسار وأذهب لبيت أبي أم أذهب إلى عتاب، ولم يكن الخيار صعبا، بل كنت قد اخترته سلفا وإليه يذهب السائق الآن.

سأذهب إلى عتاب.

عتاب، هي الوحيدة في العالم التي يمكن أن تحتوي دماري هذا، الوحيدة التي ستتفهم حالتي المتردية هذه، والتي ستعرف كيف تتعامل معي في محنتي، دون أن تضغط على جراحي، أو تلومني على ثورتي أو خطئي..

كما أن زوجها في رحلة عمل منذ عدة أيام، وهذا يناسبني كثيرا، فلن أكون كغراب البين بينهما على الأقل حتى يعود.

كما أنني لست في حالة جيدة، وغير مستعدة لمواجهة تبعات الصدمة التي ستحدث لأبي وأمي..

بل أنا غير قادرة على جمع شتات نفسي، أو دعم قلبي في مصيبته، كي أكون قادرة على هذا لأي شخص آخر مهما كان قربه مني.

عالمي كله قد انهار وعلي أن أرأف بنفسي وبعالمهم من مواجهة كهذه لن أكون قادرة على احتوائها.

أحرقت الأفكار عقلي، ثم تلاشت كسحب من الدخان، ولم يبق منها إلا فكرة وحيدة، أنني لن أكون ضعيفة مرة أخرى، ولن يكسرني شخص آخر ما حييت، وكان هذا معناه أن أدفن قلبي بيدي وإلى الأبد.

وقطع أفكاري صوت السائق يخبرني أننا وصلنا لوجهتنا..

نقدته أجرته، ونزلت من سيارته أحمل حقيبتي، ما تبقى لي من حياتي السابقة، ووقفت في الشارع الهادىء أنظر حولي في ضياع.

وخلال لحظات كنت أمام باب شقة عتاب التي قرأت وجهي، وأدخلتني على الفور، وهي تتساءل في جذع،

وهي تنظر إلى حقيبتي:

- "ماذا حدث يا سلمى.. هل تشاجرتي مع عاصم".

وضعت الحقيبة جانبا، وجلست على مقعد قريب، وأنا أتنفس بصعوبة.. وأحاول استجماع شتات نفس، لم يكن عندي روح للإجابة، فقلت باقتضاب:

- "عاصم طلقني".

نظرت نحوي بذهول وقالت:

- "عاصم طلقك.. بعد كل هذا الحب؟".

هززت رأسي في إحباط، وقلت ببرود:

- "نعم بعد كل هذا الحب".

تجاوزت صدمتها بصعوبة وسألتني:

- "وكيف تطورت الأمور إلى هذه الكارثة؟".

أجبت بمرارة:

- "لأنه لم يعد يراني المرأة الكاملة التي كان يبحث عنها".

قالت بغضب:

- "إنه الخاسر يا صديقتي.. إنه الخاسر فلن يجد في حياته من تحبه وتصونه وتسعده مثلك".

رددت في انكسار:

- "ولكنه سيجد من تنجب له".

صمتت عتاب للحظات، وكأنما صدمها ردي وقالت:

- "إنه رجل قليل الأصل يا سلمى.. لا يستحق درة مثلك.. هل الأمر بيدك ليلومك عليه، إنها إرادة الله".

وهنا لم أستطع أن أسيطر على نفسي، فقلت في يأس:

- "نعم هي إرادة الله التي لا راد لها، ولكنه لم يتقبلها ياعتاب، بل ولم يعد يتقبلني أنا نفسي بعد أن كان يهيم بي حبا..

لقد طلقني على الفور عندما طلبت منه هذا، بعد أن رأيت حالته النفسية تتدهور، وبدأ يضع بيننا سدودا وحواجز عجزت عن تخطيها، حتى أن الكلام بيننا انعدم في الشهور الأخيرة، وصرنا كالأغراب الذين يعيشون تحت سقف واحد، أغراب مقيدون بعقد زواج لم يعد له نفس القدسية التي كان عليها قبل أن يعلم بعجزي عن الإنجاب، ، لقد رماني بكل برود، وكأنه يتخلص من حمل ثقيل يثقل كاهله ".

اقتربت مني عتاب، وقالت:

- "هو الخاسر.. هو الخاسر".

لم أبال بكلماتها، فالخاسرة الحقيقية تعرف نفسها جيدا، وأكملت:

- "كنت أظن أنني عندما أطلبها منه، لن يتغير رده عن المرة السابقة التي طلبتها منه فيها في بداية معرفتنا بالأمر، كنت أحاول تحريره من قيده ليختارني مرة أخرى بإرادته بعد أن سلك طريق الهجر، كنت أحاول

أن أخبره أن كل الأمور في يده ليشعر برجولته، وبقيمتي، ولكنه كان قد قرر الفراق دون أن يجرؤ على الإقدام على الأمر من نفسه".

قبضت عتاب على يدي في رفق، وقالت:

- "هوني على نفسك يا حبيبتي.. الله لن يتركه ينعم بفعلته".

وكأنني لم أسمعها استطردت قائلة:

- "لا أعرف يا عتاب، لماذا تستكثر علي الدنيا مجرد حياة عادية سعيدة، لماذا كلما اعتقدت أني عبرت أحزاني وأن الحياة قد بدأت تبتسم لي، أتلقى الطعنة خلف الطعنة دون هوادة، أي ذنب وأي جريرة ارتكبتها ليبعد عني كل من أحبهم، لماذا لا أحظى مثلك على سبيل المثال بحياة حقيقية سعيدة، وبرجل مخلص صادق، أين الخطأ، وأي لعنة تتربص بي".

لمحت عينا عتاب تتغرغران بالدموع، وهي تجففها بصعوبة، وتزيد من قبضتها على يدي، قبل أن تقول:

- "سلمى.. أتعتقدين أن حياتي شهر عسل متواصل مع حاتم، كل الرجال على نفس الشاكلة، كتلة من النكد الأزلي القائم، لا يختلف أي منهما عن الآخر، ولا يملأ أعينهم إلا التراب.

أبواب البيوت المغلقة تخفي خلفها الكثير، لا أحد سعيد أبدا بالشكل الذي يدعيه، وأنا لا أخبرك بهذا لمرورك بهذه المحنة، ولكنها حقيقة قائمة".

قالتها ثم قبلت رأسي، وعادت لتقول:

- "احمدي الله أنه كشفه على حقيقته مبكرا، فأن تبنى حياتك على كذبة ثم تستيقظين عليها في وقت متأخر، سيكون دمار شامل لكل ثوابتك ومعتقدات ونفسك، لا أحد يدري أين الخير، ولا أحد يدري ما يخبئه القدر له. وبرغم كل شيء، ومقدار صدمتك وحزنك، هو ليس نصيبك، وربما نصيبك مازال في الطريق يسعى إليك، فاسعي إليه".

نظرت لها في دهشة دون أن أنطق، فقالت بسرعة:

- "أعرف أن كلامي هذا كله سابق لأوانه، ولكن صدقيني، كل شيء ينتهي حتى الحزن والحب والكراهية، فقط علينا أن نتماسك لنبدأ من جديد، انكسارنا وضعفنا، لن يمزق أحد غيرنا".

كلمتها الأخيرة جعلتني أنتفض من مكاني، وأقول بشراسة:

- "نبدأ من جديد.. لا يا عتاب لم أعد تلك الحمقاء التي تسير وراء قلبها، وتربط سعادتها برجل، ولن أكونها مرة أخرى.

لو حرمني القدر من الإنجاب وحرمني بعدها من عاصم، فلن أخوض مجددا أي من تلك التجارب.

لقد وصلتني الرسالة كاملة.. أنا امرأة لا تستحق إلا الحزن والوحدة، ومهما حاولت لن يتغير هذا.

أنا لن أتحمل طعنة تالية أو خذلان جديد، وأنا لست هنا لأسمع منك كلمات الرثاء أو المواساة ، أنا هنا لأنني لن أشعر بالأمان الذي افتقدته إلا في وجودك، فقط

اسمحي لي بالبقاء في منزلك حتى أتجاوز هذه المحنة أو حتى يعود حاتم، وبعد أن أتمالك نفسي سأعود لبيت أبي".

اقتربت مني عتاب، وضمتني بقوة، فتركت جسدي يستمد منها بعض الدفء، وهي تقول بصوت متهدج:

- "إنه منزلك يا سلمى، ولو لم تحملك الأرض لحملتك فوق رأسي، ولو بقيتِ معي إلى الأبد فلن يكون هناك من هو أسعد مني".

قالتها، وقبلتني على رأسي مرة أخرى، ثم استطردت:

- "كل شيء في هذا البيت تحت أمرك، ولكن لي عندك طلب وحيد".

هززت رأسي لتكمل كلامها فقالت:

- " ابكي يا سلمى.. ابكي يا حبيبتي أخرجي ما بداخلك من وجع مع الدموع.. لا تستسلمي للصدمة ولهذا الجمود".

دارت في رأسي آلاف الأفكار بعد كلماتها، وبصوت منكسر قلت:

- "وكأن الأمر بيدي يا عتاب.. لم يكن أمر قلبي بيدي ولو مرة واحدة في حياتي.. لو كان الأمر بيدي حقا، لمحوت ذاكرتي كلها، ولحذفت منها كل لحظة وجع وقسوة وخذلان.. لو كان الأمر بيدي، لصرت بخير.. ولكنه ليس كذلك".

قلتها وانكمشت بين ذراعيها، دون أن تذرف عيناي دمعة واحدة، بينما كان قلبي يبكي بدموع من دم.

ومن أعماقي دوى ذلك الصوت الكريه:

- "أنت المخطئة .. أنت المخطئة لأنك منحتي للحياة الأمان".

وبصوت هامس لم تسمعه عتاب قلت:

- "نعم أنا المخطئة".

(8)

خُلقت المحن لنعبرها..

وهي مقولة صحيحة جدا، ولكنها تحتاج لأن نكون أشخاصا أسوياء مازلنا نبصر الضوء في نهاية النفق، والأمل وسط العتمة، وأنا لم أعد سوية، وأظلم كل جزء بداخلي، فلم أعد أرى النفق من الأساس، وما عدت أتعاطى مخدر الأمل، بل صرت بقايا امرأة تحمل في صدرها بقايا قلب، يكاد يذوي من كثرة أحزانه.

وبرغم مرور عام كامل على طلاقي، وستة أشهر على زواج عاصم، مازلت أعاني من أعراض الصدمة، وأصحو على كوابيس لا تنتهي.

وليت الأمر اقتصر على هذا، فأنا لم أخسر في هذه النكبة المبينة عاصم وحده، بل خسرت نفسي، وأبي، وربما بعد وقت قصير أفقد أمي، التي تكاد تموت كمدا من شدة حزنها على مصير ابنتها، وعلى فقدها زوجها

الطيب، الذي لم يتحمل قلبه ما حدث لابنته الوحيدة فمات حسرة؟

رحل سندي الوحيد الباقي لي في هذه الدنيا، حزينا مهموما بسببي، وأصبحت يتيمة في هذا العالم، أتخبط مع أشباحي الداخلية، أبحث عن انتقام جديد يشفي غليلي من هذا العالم.

لم أتخط هذه المحنة بسهولة، وربما لن أتخطاها أبدا، فالضربات المتتالية كانت قاصمة لظهري، ولأنه لم يكن لدي بديل آخر، قررت أن أعيد افتتاح عيادتي بضغط من عتاب ومن حولي.

ولا أخفي عليكم أن قراري هذا كان أثقل على قلبي من الصخر.

ولكن الأيام تمضي وتسحبنا معها، وأنا لم يكن لدي ما أخسره، فلا أب ولا زوج ولا طفل ولا حبيب، فتركت نفسي مع الأيام لتفعل بي ما تشاء، وكأنني أحيا بداخل غيبوبة تغص بالكوابيس.

ولتظهر الأيام سطوتها وسيطرتها على مقاليد أموري، لم تتركني لأهنأ لحظة، فبعودتي للعمل، فتحت علي بابا جديدا من أبواب مأساتي.

والسؤال الذي ظل يحيرني ولم أجد له إجابة:

- "لماذا أنا دون البشر الذي يحدث له كل هذا؟".

انتظم العمل في عيادتي على الفور، وكان هذا على عكس توقعاتي تماما، إنه الشيء الذي لم أتمناه في هذا التوقيت الصعب من حياتي، ولم يكن هذا جيدا بالنسبة لي مع الضغط العصبي الذي سيمثله على روحي.

فأنا لم أكن مستعدة فعليا للتعاطي مع المزيد من المشاكل، وكما تعلمون، فإن أساس عملي هو التعاطي معها، وبرغم هذا أغمضت عيني ودرث في ساقية العمل، كثور أعمى.

ودخل الثور حلبة القتال.. وبدأت المذبحة.

وجايدا كانت ضحيتي التالية، وأول مشكلة حقيقة تقابلني بعد عودتي من محنتي، فالبعض يذهبون لعيادات الطب النفسي الآن لمجرد التباهي، وهي لم تكن منهم.

تخبرني مفكرتي الالكترونية التي أصبحت لا تفارقني منذ بدأت العمل- فأنا لم أعد أترك شيء للذاكرة، لأنها في أسوأ منحنى لها الآن- أن موعد جايدا بعد ساعة من الآن، وهو وقت كاف لي لأستعد لها.

وجايدا حالتها خاصة جدا، ووقتها ضيق، وبحاجة لحل سريع، فمشكلتها طازجة ومشتعلة، وتدل على أنها بحاجة ماسة للمساعدة، وأتذكر الآن أنني من حددت هذا الموعد بعد لقائي الأول بها منذ يومين..

كم تبدو الأيام بعيدة في ظل الأحزان، وهو مؤشر يدل في النهاية، إلى أنني قد أحتاج لنفس المساعدة النفسية التي أقدمها لها.

وفي لقائي الأول بجايدا عرفت منها بعض ملامح شخصيتها، وعندما طلبت منها أن تتحدث عن نفسها، وعن مشكلتها قالت:

اسمي هو جايدا، وهو اسم يدل على طبيعة عائلتي الإرستقراطية، فجايدا تعني الجوهرة، والجوهرة تظل دائما في علبتها المصنوعة من المخمل، حتى يأتي من يدفع الثمن ليحصل عليها.

مأساتي صنعتها الظروف، فأنا خريجة الجامعة الأمريكية أتحدث بثلاث لغات بطلاقة، وحصلت على ماجستير في المحاسبة، وقمت باستغلال مهاراتي هذه للحصول على عمل في مكان مرموق، برغم رفض أسرتي في البداية التحاقي بأي عمل خارج منظومة الأسرة الثرية، لأنني لا أحتاج إليه، وشهادتي الجامعية، مجرد واجهة تكمل فقط الشكل العام لي.

وفي هذا العمل قابلت أحمد.

شاب وسيم أنيق وطموح، ولكنه لم يكن من أسرة أرستقراطية كأسرتي، نشأت بيننا قصة حب ملتهبة، انتهت عندما تحرت عنه أسرتي، وعرفت ظروفه المادية والحياتية.

ولأن تربيتي قامت على الطاعة، لم أستطع أن أدعم أحمد في قتاله من أجلي، وفي النهاية وبعد رفضه لثلاث مرات متتالية انتهت قصتنا، وإن لم ينته حبنا، فالظروف كانت قادرة على حرماني منه لا من حبه.

بعدها لم أتزوج عن حب، بل تزوجت زواج صالونات معتاد، شاب وسيم خلوق له مستقبل مرموق، ومُرضٍ بشكل جيد.

أنجبت منه طفلة جميلة أسميتها نور، وهو الاسم الذي حلمت به ليكون، اسم أول طفلة ننجبها أنا وأحمد.

وما أؤمن به من أعماقي، أن الحياة الحقيقية يصنعها الحب، الحب الذي كنت أراه في عين زوجي دون أن تقبل به روحي.

وما أريده الآن هو أن أفهم ذاتي أكثر، وأساعد نفسي على الوصول لشاطئ الاستقرار والأمان، وسط خيارات شديدة الصعوبة.

إنني أبحث عن نفسي قبل أن أبحث عن شيء آخر، خاصة وأن أحمد قد عاد لحياتي مجددا، وأشعر بحيرة شديدة، وعجز تام في التعاطي مع الأمر، خاصة وأن أحمد يرغب في لقائي يوم الثلاثاء القادم، وأنا كما أخبرتك امرأة متزوجة ولدي طفلة".

يومها ناقشتها في العديد من النقاط العامة، ثم أخبرتها أن مشكلتها تحتاج لمزيد من الوقت والحديث، واليوم لن يمكنني مساعدتها بشكل جيد، لأن الوقت ضيق، والحالات كثيرة، وأنني سأخصص لها يوما كاملا قبل هذا اللقاء بالتأكيد.

فأنا أخصص لبعض الحالات يوما كاملا في بعض الأحيان، خاصة عندما تكون مشكلاتهم متفاقمة، وتحتاج لتدخل سريع، كي لا أتشتت بتعدد الحالات، وأمنحهم كامل انتباهي واهتمامي.

ويومها طلبت من جايدا أن تنفرد بغرفة مجاورة لي، وتخط بيدها مشكلتها، في بلوك نوت منحته لها، دون أن تهمل أي تفاصيل، وعليها أن تغلق هاتفها وتنفصل عن العالم تماما حتى تنتهي.

ولم يكن لديها غضاضة في هذا الأمر، فحدثت تهاني مساعدتي، لتهيء لها الأجواء.

لم تكن فكرة تدوين المشكلات وليدة اللحظة، بل هي وسيلة أساسية في منهج عملي، وطريقة من طرق العلاج الحديثة، وكنت أستخدمها دائما، قبل أن أُهمل عيادتي كما حدث في الفترة الماضية. أن أطلب من مرضاي تدوين مشاكلهم الخاصة، وردود أفعالهم عليها حتى لحظة قدومهم لي، في بلوك نوت قمت بتخصيصه لهذا الغرض.

وهو بلوك نوت صممته بنفسي، وتولت مطبعة خاصة طباعته، بأوراق زاهية، تمنح لمن يستخدمها الشعور بالراحة والثقة، وهو يساعدني على اكتشاف ما يحاولون إخفائه في أعماقهم.

فالكتابة تساعدهم على البوح، والإفصاح عما بداخلهم دون قيود، وهو ما تعلمته من طبيبة إنجليزية تدعى صوفي كانت تعمل معي في دبي، وكانت تعاملني كتلميذتها النجيبة.

تعودت أن أقرأ ما خطته كل حالة بتركيز وتروٍ قبل أن ألقاهم، فلكل كلمة مدلول، ولكل انفعال معنى، حتى الكلمات التي يقومون بمحوها واستبدالها، لها قيمة عندي، وتفيدني كثيرا في تحليل شخصياتهم.

وأنا أقوم برصد كل هذا وجمعه وترتيبه، وتحليله، وأقوم بربطه، بما استخلصته بعد دراسة الحالة نفسها بشكل دقيق، لأمنحهم نصيحتي وأحدد لهم وسيلة العلاج.

فأنا أتعامل مع أرواح هشة لن تتحمل صدمة أو رد فعل عنيف ممن أرادوا أن ينتشلهم من مستنقع ضعفهم.

وهذه المرة سأقوم بقراءة ملف جايدا بالكامل، لأن عقلي يمارس ألاعيبه معي هذه الأيام وبشكل يقلقني شخصيا.

ورغم أن حياتي نفسها تتجه لنفس المستنقع المظلم الذي أحاول انتشالها منه، إلا أنني سأحاول أن أتحلى بصفات الطبيبة المحترفة، وسأحاول فصل نفسي عن واقعي المؤلم لأتعايش مع واقعها، الأشد قسوة.

أنا امرأة في الأول والأخير، ولا يشعر بوجع المرأة إلا امرأة مثلها، وأدعو الله أن أكون خير عون لها، لأن ثقتي في كل شيء قد اهتزت بشكل عاصف، خاصة وأنني قد هُزمت في كل المعارك التي خضتها، وهي على وشك أن تغرق في هوة الاكتئاب والقلق.

بعد مضي نصف ساعة، كنت قد حددت في البلوك نوت الخاص بجايدا، أهم الأجزاء في حكايتها، وقررت أن أبدأ في قراءتها تباعا مرة أخرى لمزيد من التعمق داخل شخصيتها، ولاحظت أن الجزء الأول من مأساتها

قد بدأ في وقت قريب، فهي شغوفة بتدوين التواريخ، كمعظم النساء.

مأساتها بدأت في الشتاء، كمأساتي تماما..

لا أعرف لماذا في الشتاء تتكالب المصائب؟

هل يحفز برد الطبيعة برد القلوب، أم أن ما نمر به ينعكس على كل شيء حولنا، وبشكل سيء.

لن أخوض في تلك التفاصيل الفرعية، ولا في أفكاري السوداوية، فموعد جايدا يقترب، وعلي أن أستعد لها.

وعلى الفور، فتحت البلوك نوت، وبدأت أقرأ، ما خطته جايدا بخطها المنمق الدقيق، الذي يدل على شخصية قوية وواثقة من نفسها.

وكتبت جايدا:

في هذا اليوم الكئيب، هبت ريح باردة كالثلج، فارتجف جسدي في قوة، ضممت بيدي ياقتي معطفي

المنزلي الأنيق حول عنقي طلبا لبعض الدفء، قبل أن أتنهد في قوة، لتخرج تنهيدتي الحارة مع بخار الماء المتكاثف حارقة مشتعلة، كروحي التي تتقلب على جمر الحيرة، ثم عدت ببصري إلى شاشة هاتفي المحمول.

وللمرة المائة في هذا اليوم، ها أنا أقرأ تلك الرسالة التي عصفت بروحي، وزلزلت كياني، وجعلتني أتسلل إلى شرفة شقتي في مثل هذا الجو العاصف، شديد البرودة، تاركة خلفي زوجي وفراشي الدافيء، لأنعم ببعض الوحدة والخصوصية.

من يراني في هذا الجو المشحون بالكهرباء الاستاتيكية، والغيوم المحملة بالأمطار التي تنتظر أن تغرق كل شيء سيصفني بالجنون، ولكن لو وقع بصره على وجهي، سيتأكد أنني واقعة في مصيبة ما أو أحيا مأساة خاصة، مع شحوبي، وتلك الحيرة التي تسكن ملامحي.

في وقت آخر كانت بسمتها ستنير وجهها، فهي من عشاق الشتاء، ومدمني السير تحت المطر، كما أخبرتني في دردشة قمت بجذبها إليها في اللقاء السابق لأخرجها من دوامة القلق والتوتر التي كانت تعصف بها.

وفي هذه اللحظة الفاصلة، كانت جايدا تحيا عاصفتها الخاصة، ومطر عينيها يغرق وجهها، وهي تضع يدها على فمها لتكتم أنَّاتها.. إنها تحيا شتاءها القارص، شتاءً مظلما أتي من أعماق الماضي ليهز عالمها كله.

إنه قدرها، وهي تؤمن بهذا..

لقد كتبت بخط مهتز، أن قدرها أن تحيا دائما في حيرة لا تنتهي، ممزقة طوال الوقت بين خيارين، هي دائما الضحية لهما.

إنها لا تُحمل أي شيء للظروف، لقد عبرت هذه المرحلة منذ زمن، ولكنها للأسف وفي النهاية هي من تدفع ثمن كل شيء.

إنها ترى أن الحياة قاسية، واختباراتها مهلكة، وأصعب اختباراتها، تكون للقلب والمشاعر، خاصة لأنثى لم تعد تملك نفسها روحا وجسدا، وفي نفس الوقت، لا تملك سيطرتها على قلبها، الذي أتت رسالة من قلب الماضي لتدكه دكا.

في تلك الشرفة التي هجرت عالمها ولاذت بها، كانت الريح تبعث في جسدها قشعريرة باردة، ولكنها تجاهلتها، وهي تتساءل في ألم:

- "لماذا الآن يا أحمد، لماذا بعد أن تزوجت وأنجبت، وبعد مرور كل تلك السنوات، وبعد أن صرت محاصرة بالقيود؟".

وعندما لم تجد جوابا شافيا، عادت لتقرأ الرسالة الموجودة على هاتفها، وكل خلية في جسدها ترتجف من الوجع، فالإجابة كانت تقبع هناك، وأحمد لم يتركها لحيرتها، وإن وضعها في حيرة أكبر، وأعادها لدائرة الاختيار المرة بكلماته التي تفيض بالمشاعر، من أول حرف فيها.

كلمات نابعة من القلب إلى القلب.

إنها تحفظ كل حرف فيها من كثرة ما قرأتها، ورغم ذلك ها هي تعود أسيرة للكلمات.

وأنا بخبرتي وتجاربي أدرك أن الكلمات سلاح مخيف لا تقاومه أية أنثى مهما كانت قوة شخصيتها، ومقدار ثقتها في نفسها.

فالأنثى تخطفها كلمة، وتحيا الأمل بكلمة، وتهب حياتها وروحها وجسدها بكلمة، وقد تذبحها كلمة.

الكلمة عقد وعهد ووعد.

والآن صارت الكلمة نهرا من اللهيب والألم الحارق، وحبيبها القادم من الماضي يجيد جيدا انتقاء كلماته، وهي قد خطت رسالته من الذاكرة، وهو مؤشر سيء بالنسبة لي كطبيبة نفسية، فهو يدل على تعلق واحتياج شديدان.

وعندما قرأت الرسالة أدركت، أن الجنون قد ينتقل ببساطة، وأن بعض الكلمات قادرة على هدم عالم مستقر بالكامل، خاصة وأن كاتبها لابد وأنه قد أعمته رغبته، وربما عصفت به مشاعره- وهو شيء أنا غير متأكدة منه- لأن الرجال لا يسقطون بسهولة ضحايا قلوبهم، بل يسقطون ضحايا رغباتهم، فليس مرضاي جميعهم من النساء، وإن كانت نسبتهم لا تذكر إذا ما قورنت بنسبة النساء المترددات على عيادتي.

وكانت الرسالة تقول:

- "حبيبتي جايدا ..

كل إنسان في هذه الدنيا يبحث عما ينقصه، ويفتقده، وأنا أتيت لهذه الدنيا بحثا عنك يا كل أملي.

صدقيني وسط الحيرة وكل اضطرابات الحياة، أن أصل لتحديد هذه النقطة هو انجاز وإعجاز في ذات الوقت.

فأن تعرف هدفك في الحياة، وأن تدرك الجانب الذي ينقصك، وأن تحدد الشخص الذي لا تكتمل دونه، هي نعمة لا يصل إليها الكثيرون.

أعرف أن ارتباطنا الآن شبه مستحيل، وأن ما بيننا من أشواك يدمي زهرة حبنا، ولكنني على استعداد تام لأن أسير فوق هذه الأشواك ما تبقى لي من عمر، لأرى مرة ثانية ابتسامتك.

أنت الحياة يا جايدا..

أنت النور الذي يقبع لي في نهاية النفق..

أنت الأمل في أن أتقبل أن هذه الحياة عادلة مرة أخرى..

أنا أفتقدك بشدة..

أشتاقك بكل ذرة في كياني.

أشتاق لصوتك..

لدفئك ..

لرائحتك العطرة..

لنعيم الحياة بقربك..

أعرف أن كل هذا جنون، ولكن الحب لا يعرف العقل يا حبيبتي، والقلب لا يؤمن بالمستحيل..

ألم تكن هذه هي كلماتك ذاتها يا جايدا.

كل ما مضى من حياتي كان يسير في اتجاه خاطئ، كل الطرق التي ظننت أنها كانت تبعدني عنك، كانت تقودني في النهاية إليك، وكل طريق آخر هو ضياع تام.

لا تحدثيني اليوم عن الظروف، أو العرف أو المجتمع، فأنا لا أملك أمام مشاعري سلطانا، ولن ألتفت لأي مبررات مهما كانت واهية أو قوية لأغير يقيني بعشقك.

أنا لا أبحث عن طوق نجاة..

أو عن حب قديم ينتشلني من غياهب ضياعي أو فشلي، فأنا رجل أعمال ناجح الآن، كل شيء أصبح ملك يميني، إلا قلبي.

قلبي مازال هناك حيث تركته..

مازال بين يديك يخفق من أجلك..

صدقيني أنا أعرف كل شيء عنك، ومحيط بكل ظروفك، ولكني أطلب منك المستحيل..

أن تتركي كل شيء وأي شيء .. وتكونين لي !

ولن أعدك إلا بشيء واحد فقط..

السعادة ..

السعادة التي أنا على يقين كامل بأنك تفتقدينها، والتي أنا قادر على منحك إياها.

فلن يحبك في هذا العالم شخص مثلما أحبك.. ولن يستطيع شخص آخر أن يعزف على أوتار روحك، مثلما سأفعل.

اعذريني لو كنت أستعير كلماتك، فهي الشيء الوحيد الذي أحيا به الآن.

وأعتقد أن الحب والسعادة الحقيقيان يستحقان، أن نفكر ونضحي، وأن نسير لمرة أخيرة في درب الجنون..

حبيبتي جايدا..

الحياة هي أنت.. وسعادتك لن تكون إلا معي، والحياة عودتنا أن الفرصة لا تأتي لمن يستحقها، ولكني من أجلك سأخلق ألف فرصة.

فقط لتكوني معي، ومعك سأحارب العالم كله من أجلك.

أعرف أن كل هذا جنون، وأنني أضعك في امتحان صعب واختيار عاصف، ولكن صدقيني، السعادة لن تأتينا إلا إذا انتزعناها.

كوني معي، ووقتها فقط ستبدأ حياتنا الحقيقية، لا داعي لأن نحيا كل هذا الزيف، وبقلوبنا يسكن الحب الحقيقي.

سأنتظرك يوم الثلاثاء، نفس التاريخ الذي التقينا فيه أول مرة.

أعرف شغفك بمثل هذه التواريخ، وأتمنى أن تبعث قصة حبنا من بين رماد الأيام، في نفس الموعد والمكان.

أعرف أنه من الصعب أن أراكِ بنفس الثياب التي كنت ترتدينها، ولكني لن أتنازل عن تسريحة ذيل الحصان، وطلاء شفتيك الوردي الرقيق.

أنا لا أرغب في إيقاف الزمن، أو استدعاء ذكرى قديمة، أنا فقط أرغب في أن نكمل من نفس اللحظة التي بدأ

فيها عشقنا.

كوني معي، وصدقيني لن تندمي لحظة واحدة.

هذه المرة نحن قادرون على خلق فرصتنا ..

وقهر الظروف..

حبيبك أحمد

من طريقة سرد جايدا للرسالة، وانفعالها أثناء كتابتها، أنا على يقين تام من أنها لم تكن تقرأ رسالة أحمد التي فاجأتها على بريدها الالكتروني الشخصي بعينها، بل كانت تسمعها بصوته الحنون، صوته الذي طالما أسرها، وهز كيانها، وخفق له قلبها.. وهي تفكر!!

كم مضى من الأعوام..

أربعة أعوام..

وما زال قلبها يخفق عندما تمر ملامحه الرجولية بخاطرها، برغم كافة التغيرات، والقرارات، والحروب

التي خاضتها في حياتها.

كما أنها كانت تشعر بنشوة شديدة، وصوته الدافيء يدوى في أعماقها، مستعيدة تفاصيل آخر لقاء جمعهما معا:

- "لقد هُزمت في معركة ارتباطنا، ولكني لم أهْزم في معركة حبك، ذات يوم ولو بعد مليون عام ستكونين لي، حتى لو ظل استسلامك بيننا، فحبك لا يمكن أن يموت يا جايدا.. فأنت حياتي نفسها".

كتبت جايدا أن الذكرى عصفت بها، كما عصفت بها الرسالة، فهامت مع ذكرياتها حتى أعادها للواقع هطول المطر، فوضعت هاتفها في جيب معطفها المنزلي، وتركت المطر والشرفة والبرد خلفها، وعادت لشقتها.

وما إن أحكمت إغلاق أبواب الشرفة واستدارت، حتى وقع بصرها على صورة زفافها، ورأت بجوارها شخص آخر غير أحمد..

زوجها عمر..

وهذه المرة بكت، كما لم تبك من قبل.

كانت تشعر بوحدة رهيبة، وتخوض مع نفسها معركة ليست مهيأة لها..

بل معركة لم تصل لها أكثر أفكارها جموحا..

ولكنها عادت وقرأت الرسالة، وعادت دموعها لتغرق عالمها، حتى غلبها النوم.

وفي الصباح، استيقظت جايدا إثر هزة قوية من يد زوجها عمر الذي فوجيء بها نائمة في صالة شقتها فوق الأريكة ودون غطاء، وحمدت الله أن دموعها قد جفت فلم يرها.

استوت جايدا على الأريكة جالسة أمامه، وهي تنظر لوجه زوجها الذي كان يحمل نظرة مشفقة حانية افتقدتها في الأشهر الماضية ، وهو يقول:

- "أي جنون جعلك تنامين في مثل هذا المكان يا حبيبتي، وفي مثل هذا الطقس شديد البرودة، أحمد

الله أنك لم تصابي بالبرد أو ما هو أخطر.. هل أنت بخير؟".

نظرت نحوه في حيرة، ثم انتزعت ابتسامة باهتة، وهي تقاتل كي لا تجيبه بأن رجل آخر هو سبب وجودها في هذا المكان، وفي النهاية قالت:

- "أنا بخير يا عمر لا تقلق، إنها مشكلة في العمل تؤرقني فحسب، قطعت ساعات الليل الأولى أفكر في حلول لها فغلبني النوم في مكاني، هل أعد لك طعام الإفطار".

منحها نظرة مشفقة أخرى، ثم اقترب منها، وقبلها على جبينها وهو يمسد على شعرها قائلا:

- "بل أنا من سأعد لك طعام الإفطار بنفسي، ألا ترين كيف تبدو حالتك؟".

سرت في جسدها رعدة قوية برغم قبلته الحانية، وهي تتساءل في أعماقها، هل للخيانة آثار تظهر على

الوجه، هل سيكتشفها عمر، ولكنه عاد وقطع أفكارها وهو يقول:

- "إن وجهك شاحب كالمرضى".

لا تعرف لماذا ضايقها كونه حنونا ومهتما إلى هذا الحد، حقيقة أنه ليس زوج رومانسي، ولكنه لم يهملها قط، أو يقصر معها في أي من واجباته نحوها، سواء المادية أو المعنوية أو الحميمية، كما أنه وافق على استمرارها في عملها على الرغم، من أنه يتكفل بكل شيء يخصها.

ولكنها من أعماقها كانت متحفزة له، تنظر له على أنه أحد أخطاء الماضي، وكانت تتمنى أن تخبره بأنها مريضة بحب أحمد، ولكن جنونها لم يصل إلى هذه المرحلة لحسن الحظ.

وعند هذه النقطة توقفت، كما توقفت أنا عندها كثيرا.

إنها بداية تخطي الصدمة أو لنقل مرحلة الإفاقة، وتفعيل صوت العقل، العقل الذي طرح العديد من

التساؤلات.

هل تحب أحمد بالفعل، أمازال له بداخلها نفس الشوق والحنين رغم مرور كل تلك السنوات؟

إن له بأعماقها مكانة كبيرة لم تهتز لحظة، ولن تهتز؛ فهو حبها الأول، وألمها الأول، وهزيمتها الأولى أمام قسوة الحياة والظروف.

إنه الرجل الوحيد الذي تمنت أن تكمل حياتها بجواره، الرجل الذي اختاره قلبها، وعاندته الظروف، وعاندتها في حينها.

إنه لمسة العشق السحرية الأولى، التي أيقظت بروحها وجسدها، نيران المشاعر والرغبة المتقدة، والتي جعلتها تخرج من طور المراهقة، إلى طور النضوج والأنوثة.

إن قلبها يخفق باسمه، هل هذا هو الحب؟

أم هي مجرد مشاعر قديمة ساكنة، حركتها فقط المفاجأة غير المتوقعة، وروتينية الحياة ؟.

إنها تدرك أن قلبها مازال معلقا به، وروحها تصبوا إليه، وإلى وجوده الساحر، وفي نفس الوقت تتساءل:

هل مازال حبه لها رغم مضي الأعوام حي إلى هذه الدرجة؟

وهل لها الحق في حب مماثل؟

إنها تذكر أن زوجها قد قاطعها في هذه اللحظة، بل وأدخلها في دوامة جديدة من الحيرة والألم عندما سألها:

- "جايدا .. جايدا .. ما الذي سرقك مني مجددا.. أنا أحدثك أجيبيني؟".

(سرقك مني).

صدمتها كلمة زوجها المعبرة بشكل موجع، فهبت من مكانها مضطربة متوترة وقالت:

- "إنها تلك المشكلة في العمل ياعمر، لا تشغل بالك بها".

خفق قلبها في قوة، عندما ابتسم لها، ثم استدار ليتجه نحو المطبخ في خطوات واسعة، وقال:

- "يبدو أنها مشكلة كبيرة.. سأعد الإفطار في حين تحصلين أنت على دش دافيء يعيد لك حيويتك.. وبعدها نتحدث عن هذه المشكلة".

نظرت لظهره في جمود إلى أن اختفى داخل المطبخ، ثم همست وقبضة باردة تعتصر قلبها وقالت:

- "بلى هي مشكلة كبيرة جدا ياعمر، ولن نستطيع الحديث عنها يا زوجي الغافل.. لأنك لو علمت بها ستصير مصيبة".

وبلا وعي، وجدت نفسها تقطع الصالة والرواق القصير وتدخل إلى غرفة صغيرتها النائمة نور، وتنتزعها من بين الأغطية وتضمها إلى صدرها في قوة، وهي تحاول في صعوبة، أن تمنع دموعها من الانهمار، ودون أن تشعر حدثتها هامسة:

- "لا تخافي يا صغيرتي فأمك بجوارك ولن تتخلى عنك أبدا".

ولدقائق ظلت تحتضنها، وعقلها في عالم آخر..

عالم مضطرب، تقارن فيه بين حياتها الحالية، وحياة تخيلية تمنتها ذات يوم، وعاد أحمد من الماضي ليحملها إليها.

وجفلت عندما قبلتها ابنتها نور كعادتها المحببة عندما تستيقظ من نومها، ولا تعرف لماذا ارتعد جسدها عندما وقع بصرها على ابتسامتها الساحرة، ووجهها البريء؟. ولا تعرف لماذا في هذه اللحظة بالذات قررت أن تذهب للقاء صديقتها ندى؟

ربما لأنها لن تكون قادرة على القتال في هذه المعركة وحدها، أو لأنها تؤمن في أعماقها، أنها ستخسر هذه المعركة، واستقرارها، وحياتها، وربما ابنتها أيضا..

إنها راغبة من أعماقها، في الفرصة التي ستجعلها، تسير في درب الجنون، كما قال أحمد.

وعندما جاء صوت زوجها عمر يدعوها لتناول الإفطار..

كانت صورة أحمد الوسيمة تحتل كامل كيانها.

(9)

أنا غير معتادة على التفاعل مع حالاتي بمشاعر غير محترفة، ولكنني عندما أنهيت قراءة هذا الجزء المفعم بالأحاسيس والمشاعر والأمنيات، انهمرت دموعي بغزارة وأغرقت وجهي وثيابي.

شيء ما لمسني من أعماقي، وفجر مخزون توتري واضطرابي على هيئة دموع غزيرة، وتأوهات صامتة.

لم أكن أبكيها وحدها، بل كنت أبكي نفسي أيضا.

فكل ما أردته أن أحيا بسعادة، حياة عادية كملايين الحيوات من حولي، لا أسيرة لذلك الاحساس بالخزى والضياع.

العجز قاتل، والحيرة بئر بلا قرار، وقصص الحب الفاشلة مؤثرة وتستدر شفقتنا وعطفنا دون هوادة.

وهذا ما لا يجب أن يحدث معي أنا بالذات، ولكنه للأسف يحدث، وهو ليس في صالحي أو صالح جايدا

أبدا.

أغلقت البلوك نوت الخاص بجايدا بعد أن ثنيت الورقة التي توقفت عندها، ثم طلبت من تهاني أن تحضر لي قهوتي التركية المركزة، مشروبي الدائم الذي يمنحني بعض الراحة والتركيز.

وتهاني هي مساعدتي في العيادة، فتاة شديدة الطيبة من منطقة شعبية فقيرة، تحبني بشكل خاص، ربما لأنني أعاملها معاملة آدمية لا تراها في بيئتها الفقيرة، ومع زوجها القاسي الذي لا تحلو له الحياة، إلا بإهانتها.

وهذا جعلني أفكر، أن الكل يعاني، وأن نهر الحزن لا نهاية له، وفروعه موزعة على الجميع دون رأفة، وأن الحياة لن تكون عادلة أبدا في يوم من الأيام.

أنهيت مشروبي، وغرقت في أفكاري، وسطعت صورة عاصم في خيالي، فانقبض قلبي، وأصابني هذا بالتوتر.

كل النساء يلجأن إلي في محنتهن، فلمن ألجأ أنا.

وكي أهرب من أفكاري المظلمة هذه، قررت أن أقرأ، باقي الملاحظات التي خطتها جايدا بيدها، وفتحت البلوك نوت، وبدأت أقرأ:

عندما غادر زوجي إلى عمله، هاتفت مديري في العمل، وأخبرته أني أمر بوعكة صحية مفاجئة وبحاجة إلى إجازة ليومين، ولأنها كانت إجازتي الوحيدة الطارئة خلال العامين المنصرمين، وافق على الفور وتمنى لي الشفاء.

بعدها هاتفت ندى وأخبرتها أنني أرغب في الذهاب إليها للقائها على وجه السرعة، حاولت أن تستفسر مني عن سبب هذا اللقاء في هذا الوقت المبكر من اليوم، فلم أخبرها بأكثر من أنني بحاجة ماسة إليها، وعندما شعرت ندى بقلقي واضطرابي، أخبرتني، أنها ستوصل أبنائها إلى مدارسهم وتأتي لي على الفور.

استغللت أنا هذا الوقت، وقمت بإطعام نور، وأعددتها للذهاب إلى حضانتها، وعندما انتهيت، أوصلتها إلى حافلتها، وقبل أن تغادر منحتها قبلة طويل، ثم عدت

لشقتي الخالية التي يضج كل شيء فيها برائحة عمر، بينما كان عقلي هناك مع أحمد.

لا أنكر أنني كنت أشعر بذنب كبير في كل مرة أفكر فيها بأحمد، وأنا على ذمة رجل آخر، وفي نفس الوقت لا أنكر برغم هذا استمتاعي بعودته إلى حياتي، وشغله لبعض تفاصيل يومي الروتينية.

أعرف أن تحول الحياة بعد الزواج إلى روتين يجعلها لا تطاق، ولكنها ليست مبررا للخيانة، ولكن هذا كان إحساسي.

وقع الكلمة على نفسي كان صعبا فبكيت، في نفس اللحظة التي دق فيها جرس الباب، فمسحت دموعي بصعوبة ولكنها لم تتوقف.. ذهبت إلى الباب وفتحته، وهناك رأيت ندى على عتبته، فازحت جسدي لتدخل، وهي تقول في لوعة:

- "ما هذه الدموع يا جايدا.. ماذا حدث هل نور وعمر بخير؟".

- "هل تعتقدي أني جاهلة عن تفاصيل حياتي يا ندى.. أنا لم أطلبك اليوم لتأتي وتلومينني".

جذبتني من يدي، لأجلس أمامها ثم قالت:

- "ولا تتوقعي مني أن أدعمك في هذا الجنون.. إن أحمد هذا شخص غير محترم ليراود زوجة وأم عن نفسها".

نظرت لها في دهشة وذهول، من تعبيرها الصادم، وقلت:

- "أحمد ليس شخصا حقيرا ليفعل ذلك يا ندى".

عادت ونظرت لي وقد بدأت ملامح الصدمة تختفي من وجهها، وهي تقول:

- "ولكنك متزوجة يا جايدا.. وعمر لا يستحق منك هذا.. كما أنك تحبينه.. أليس كذلك يا جايدا".

صرخت في وجهها:

- "كفى يا ندى كفى ..أنا في محنة وأرغب في مساعدتك.. أنت صديقة عمري والوحيدة التي يمكن أن أحدثها دون خوف أو قلق.. وكنت أتمنى أن تقدري موقفي.. لا أن تذبحيني أنت الأخرى".

وهنا صمتت ندى لبعض الوقت قبل أن تقول بصوت أقل حدة:

- "أنت أختي يا جايدا.. وكل ما أريده هو مصلحتك.. أنت لديك بيت مستقر، وطفلة وزوج محب، فما الداعي لهدم كل هذا، هل تعتقدين أنك حرة كي تتخذي قرارا مماثلاً.. لا لستِ حرة يا صديقتي العزيزة، لأنه ليس مصيرك وحده من تعبثين به، إنها مجرد رسالة لو تجاهلتِها، ستمضي حياتك في طريقها المرسوم وتتجنبي حزنا وندما سيأتي لا محالة، ولكن لو تعلقتِ بها، وما تحتويه من أوهام، فستأخذك لطريق الضياع.

لو كان أحمد يحبك كما يدعي، لما فضل سعادته على هدم حياتك واستقرارك، أعرف أنك تريدين مناقشة

دودة الكتب حرامية

الأمر، وأن تقلبيه معي على جميع أوجهه الممكنة وغير الممكنة، ولكنك بهذا تفتحين على نفسك بابا للشيطان، فمناقشة ماهو غير ممكن والدخول في التفاصيل، قد يجعله ممكنا، ولو طاوعتك فأنا بهذا سأكون شريكة لك في هذه الجريمة التي لا تستوعبين حتى الآن تبعاتها.

عليك أن تغلقي هذا الباب إلى الأبد، لأنك لو فكرتي أكثر، فبكل بساطة سيقتنع عقلك أن الأمر ممكن والسعادة الزائفة قادمة، وهذا سيكون على حساب من، زوجك وابنتك وعائلتك، ونفسك قبل كل شيء، لا تضعي حياتك في لعبة قمار".

كان حديثها مثل ضربات سوط حادة على روحي.

لن أنكر أنني لم أفكر في كل هذا وأكثر.

لن أنكر أني أكن لعمر الكثير من المودة وربما ما هو أكثر، ولكن مشاعري نحو أحمد مختلفة، وأعمق، وأصبحت الآن أكثر اشتعالا.

رودة الحيث حرامية

رسالته كانت تقرأني، وكلماته تسحرني، ووجوده أحيا بقلبي أحاسيس انطمرت منذ زمن بعيد..

إنه الحلم الذي لم أحصل عليه، وأجبرت على فراقه..

الوعد بحياة مختلفة لا تلك الحياة الروتينية التي أحياها.

أعرف أنه لا ذنب لزوجي، ولا لابنتي في كل ما أشعر به، ولكنني لست حجرا، أنا إنسانة لديها قلب لا تملكه، ولديها فرصة قد تجعل حياتها نعيما دائما، ربما هو ليس حقي في ظروفي الحالية، ولكنني أتمناه.

نعم أتمناه ..

أتمنى لو كنت مع أحمد منذ البداية، ولو أن الزمن يعود، ونبدأ سويا من حيث توقفنا، كما يرغب هو..

لا أريد أن أكمل حياتي مع عمر لمجرد أني أحس بالذنب وتأنيب الضمير، بل لأني أحبه، ولأن عقلي وقلبي يرغبانه.

جودة الكتب حرامية

لا أعرف لماذا لا توجد هذه القدرة في حياتنا، أنه عندما نخطئ أو نتسرع، أو نجبر على أمر، أننا نستطيع أن ننهي كل شيء، ونبدأ من جديد.

صارحت ندى بكل هذا، فكان ردها:

- "ولأننا لا نملك هذه القدرة السحرية، ولأننا لا نستطيع أن نبدأ من جديد متى أردنا، علينا أن نحافظ على ما نملك، كي لا نفقده هو الآخر في نزوة، أو لحظة تهور، ففي بعض الحالات العجز نعمة كبيرة، فليس ما في الغيب مضمون، وحتى لو كان مضمونا، علينا أن نعرف أن الثمن المدفوع لن يكون هينا.. عودي لعقلك.. وأنا سأكون دائما بجوارك".

للمرة الأولى منذ دخلت ندى حياتي، أشعر أني لا أطيقها، وبكونها عبء على كاهلي، وللمرة الأولى أتمنى لو أنني لم أطلب مساعدتها، ولم أخبرها بشيء عن أحمد أو عن رسالته، أو عن أفكاري الجنونية التي تتصدى لها بعنف دون شفقة أو تفهم.

دودة الكتب حزامية

وكي أنهي الموضوع، أخبرتها بأن عندها كل الحق، وشكرتها على دعمها لي، وتركتها تنصرف، وهي تعتقد أنها أنقذتني من الوقوع في الخطيئة، وأنها حافظت على بيتي.

بينما جلست أنا بعد خروجها، أقرأ رسالة أحمد للمرة المليون، وأفكر في الفرصة التي ألقاها القدر أمامي.

أحمد أصبح ناجحا، ولم يتزوج وينتظرني.

أحمد فرصة لا تعوض، ورجل تمنيته كما لم أتمن رجلا آخر من قبل.

أحمد يعرض علي الحب والسعادة والجنون.

أحمد يريدني أن أتخطى كل قواعد العرف والمجتمع ولا أفكر إلا في نفسي وسعادتي والمستقبل القادم.

أحمد لا يرى زوجي أو ابنتي أو عالمي كله .

أحمد لا يرى سواي.

دودة الكتب حرامية

وأنا لا أرى سوى ابنتي..

إنها أكبر عائق في هذه المغامرة..

الجدار الذي يقف بيني وبين أحمد وسعادتي.

هل لو لم تكن نور بالصورة، هل كان سيختلف موقفي، هل كنت سأتردد كل هذا التردد، وهل كان سيختلف قراري؟.

كان هذا هو السؤال الذي عجزت عن إجابته".

توقفت عن قراءة ما خطته جايدا هنا، وأخذت أقلب أفكارها الأخيرة في رأسي، ببطء وهدوء محاولة أن أقيم كل كلمة بل كل حرف وكل إحساس، ولم أكن بحاجة لأعرف هل وصلت لإجابة أو لا لأنها لو توصلت لها، أو أن قرارها كان مستقرا، فإنها لم تكن لتلجأ إلي.

ملخص حالة جايدا أنها أحبت في وقت مبكر من حياتها، وهزمت الظروف حبها، وكأي فتاة في هذا المجتمع تزوجت زواج عادي، يقوم على القبول لا

الحب، وعاشت حياة روتينية عادية مع زوج محترم، منحها كل شيء بطريقة تقليدية، تحفظ كيانها وأسرتها.

وإن لم يمنحها ذلك الاكتفاء الذي تحتاجه كل أنثى لديها مخزون كبير من المشاعر، وبدلا من أن يطلقه ويحتويه جمده، والآن ظهر لها فارس أحلامها الأول، يعدها بالسعادة والحب والجنون، على أن تضحي بكل شيء آخر، وتكون له دون العالم.

إنها لعبة الاختيارات القاسية، التي لا تبدأ ولا تنتهي، إلا بتضحية جسيمة.

والآن علي أن آخذ بيدها، وأقودها إلى الطريق الصحيح.

فأي الطرق أصح:

طريق العقل، أم القلب؟

الطبيب عليه أن يمنح الدواء، لا أن يستجيب لرغبات المريض.

والإجابة هنا هي طريق العقل، وبهذا سنضحي بالقلب، ولكن قبل كل هذا علي أن أتأكد من حقيقة مشاعرها.

ولذلك فاليوم كله لها، وأدعوا الله أن أكون قادرة على هذا بالفعل، فهمومها تراكمت فوق همومي بشكل مقلق، ولولا حاجتها الماسة لي وضيق الوقت، لطلبت تأجيل هذا الموعد، أو أحلتها لطبيب آخر قادر بالفعل على مساعدتها.

هو ليس اختبار لها بقدر أنه اختبار لي أنا !.

فهل سننجح سويا في هذا الاختبار.

وهنا قاطعتني تهاني قائلة في جهاز الدكتافون:

- " دكتورة سلمى، مدام جايدا تنتظر بالخارج، هل أسمح لها بالدخول؟".

سحبت نفسا عميقا، وأطلقته، ومعه بعضا من توتري، وأغلقت البلوك نوت وأجبتها قائلة بصوت مضطرب:

- "أدخليها يا تهاني .. أنا بانتظارها".

وبدأ الاختبار الأصعب.

(10)

طرقت جايدا باب غرفتي برقة، ثم دخلت، وهي تنتزع من أعماقها ابتسامة باهتة رسمتها فوق شفتيها، وملامحها الشاحبة توحي بذلك الحمل الثقيل الذي يثقل كاهلها وقالت:

- "مساء الخير يا دكتورة.. أعتذر عن تأخري اليوم عن الموعد".

نظرت للساعة المعلقة على الجدار، وقلت:

- "لا مشكلة هناك.. عشر دقائق لا تمثل تأخيرا كبيرا.. اجلسي لترتاحي.. هل أطلب لك أي مشروب ساخن فالجو اليوم شديد البرودة".

جلست برقة على المقعد المقابل لي وقالت:

- "فقط الماء.. أشعر بروحي نفسها جافة".

حدثت تهاني في الدكتافون لتحضر لها الماء، فأحضرته على الفور ووضعته أمام جايدا، التي تناولت منه القليل، قبل أن ترمقني في صمت.

تأملتها لعدة ثوان، قبل أن أبادرها بالحديث قائلة:

- "كيف حالك اليوم يا جايدا.. وجهك يشي بإرهاق شديد، والسواد أسفل عينيك يخبرني أنك لم تنامي جيدا هذه الأيام".

ابتلعت جايدا ريقها في صعوبة، ثم نظرت نحوي وقالت:

- "لا نوم ولا راحة هذه الأيام يا دكتورة.. محنتي عظيمة، وحيرتي أعظم، وأشعر أن عقلي قد تبلد وتوقف عن التفكير، أنا بحاجة لمعجزة لأعبر هذا الكرب الشديد.. ولن أخفي عنك أنني فزعة من كل شيء.. من نفسي ومشاعري، وطريقة تفكيري، ولا أرى أن هناك طوق نجاة يمكن أن ينجدني من كل هذا الغرق".

ابتسمت لها كي أزيل بعضا من توترها وقلت:

- "إنها بداية عاصفة يا جايدا.. عليك أن تهدئي قليلا لأن حديثنا اليوم سيطول، وفي البداية أحب أن تنسي تماما أني طبيبتك النفسية، واعتبريني صديقتك، وتحدثي معي بحرية كاملة".

ردت على ابتسامتي بابتسامة وهي تقول:

- "أنا أعتبرك كذلك بالفعل، ولكن الوقت ضيق، وأنا من النوع الذي لا يحب أن يحيا تحت ضغط مستمر، لأن وقتها الحياة بالنسبة لي تتوقف تماما، ويؤثر علي هذا نفسيا وجسديا، وأنا عندي زوج وطفلة، وكل هذا سينعكس على تعاملي معهما، وأنا لا أحب أن أقصر في أي من مسئولياتي، غير عملي الضاغط، إنها المرة الأولى التي أزور فيها طبيبا نفسيا كما أخبرتك في المرة السابقة، وأتمنى أن تكون الأخيرة".

منظمة هي جايدا في طريقة تفكيرها، وهذا يعجبني بها كثيرا، كما أنها في عز محنتها، لم تتخل عن أناقتها

أو مظهرها الخارجي، وهذا جعلني أدخل معها مباشرة في صلب المشكلة وقلت:

- "بالحديث عن ضيق الوقت.. اليوم هو الإثنين، والثلاثاء بقي عليه أقل من عشرين ساعة، فما هو قرارك؟".

ابتسمت في مرارة وقالت :

- "لم أقرر بعد ولهذا جئت إليك.. وإن كانت نفسي تميل للذهاب، فالفرص المماثلة لا تتكرر في العمر مرتان".

تأملت اهتزاز شفتيها، والضيق الذي بدأ يرتسم على وجهها وقلت:

- "الفرص المماثلة يعتبرها البعض مأزقا وفخا، فهل تريدين الذهاب لأنها فرصة، أم هو فضول أم رغبة في دراسة أحمد عن قرب؟".

هزت رأسها بأنها لا تعرف، فسألتها مجددا:

- "ما هو الفرق الرئيسي الذي يجعلك منجذبة للمغامرة مع أحمد، على الرغم من أن عمر لا تشوبه شائبه، حسب ما كتبتِ، وما أخبرتني به".

وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال فأجابت على الفور:

- "إن زوجي عمر شخص طيب جدا، وتتمناه أي امرأة في العالم، شخص ناجح في عمله، غير بخيل، وراقٍ في تعامله، ومحب لابنته، ويقدس الحياة الزوجية، و..

صمتت وكأنها تفكر في المزيد، وعندما شعرت بعجزها قلت:

- "ولكن ".

أجابت على الفور:

- "هو زوجي يا سلمى وليس فارس أحلامي، هل تعرفين الفرق بين هذا وذاك.. مجرد زوجي وبيننا عشرة ومودة وطفلة و..".

قاطعتها قائلة:

- "وأحمد؟"

تنفست جايدا بعمق، وسرحت عيناها وهي تقول:

- "أحمد هو حبي الأول والأخير يا سلمى، لم أغرم برجل قبله أو بعده، حتى في تلك الفترات التي كانت تسرقني فيها الدنيا، كان هناك في قلبي لم يغادره قط، وكأن حبه هذا جزء مني، خلق معي، ولن يموت إلا بموتي، لقد استنفدت معه كل مشاعري، فلم يبق لغيره أي شيء آخر.

أحمد هو الحب الكاسح المزلزل الذي سطا على كل ذرة مشاعر في كياني.

ذهب أحمد رغما عنه وعني وبقي حبه في قلبي إلى الأبد، ومهما تبدلت الظروف، سأظل مغرمة به، وسيظل حلم حياتي، ولن أرى رجلا أكمل ولا أفضل منه مهما حاولوا، لأنه هو الوحيد الذي امتلكني دون شروط،

والذي وهبته قلبي دون أسباب، أنا مغرمة به من رأسي حتى قدمي، فهل تفهمينني؟".

كان علي أن أهضم حديثها بسرعة، لأنها فاجأتني بأنها تخطت مرحلة الحيرة في تحديد مشاعرها، ودخلت لمرحلة القرار بشكل سريع وعملي، ودون أن تنظر لتبعات الأمر، وكان علي أن أتماهى معها، حتى تخرج كل مكنون روحها، فقلت:

- "كلامك هذا وضع نقاطا كثيرة فوق الحروف، ولكن ليس معنى أنك مغرمة بهذا الشكل، أن الشخص الآخر مناسب لك دون قيد أو شرط، أنت متزوجة وتعرفين أن الزواج والارتباط ليس حبا فقط، وأن المتزوجين يخوضون مسئوليات وأمورا أكبر، تجعل الحب مجرد خلفية للحياة، وليس هو الحياة كلها و..".

همت أن تقاطعني فأشرت لها أن تنتظر وقلت:

- "الحب بداية جيدة لأي حياة، ولكن الشخصيات تتغير وتتبدل حسب ظروف كثيرة، وحسب الضغوط.

فلو افترضنا جدلا أنك قررتِ الانفصال والزواج بأحمد بعيدا عن وجود طفلة من عدمه، وهي نقطة سنعود لها سويا فيما بعد، ثم اكتشفتِ أن الحب موجود، ولكن الشخص نفسه ليس هو من كان في خيالك.

في هذا الوقت لن يكون هناك مجال للتراجع، ولن تفقدي حياتك السابقة والحالية فقط بل ستفقدين نفسك.

صدقيني وعن تجربة شخصية، الحب وحده لا يصمد أمام كل المحن، الحب وحده ليس ضمانا كافيا لأي شيء، ومهما كان وهج هذا الحب سيخمد لهيبه، ويبقى الشخص نفسه بكل عقده، وعيوبه".

نظرت نحوي بنظرة عميقة ثم قالت:

- "أنا أعرف أحمد جيدا يا دكتورة، وأعرف عيوبه ومميزاته، ويكفي أنه حتى هذه اللحظة يرغبني، ويرغب في القتال من أجلي".

ابتسمت لها وقلت:

- "جميل هذا الكلام، وهذا سينقلنا للحديث عن نقطة أخرى، من واقع معرفتك بأحمد، هل أنت بالنسبة له هدف أم حياة؟".

ضيقت عينيها وقالت:

- "لا أفهم السؤال جيدا؟".

نبرة صوتها لم تكن تحمل ملامح حيرة بل مفاجأة، ومعنى هذا أنها كانت تريد بعض الوقت لتفكر في أحمد من تلك الزاوية قبل أن تجيب، وهذا دفعني لأقول لها بهدوء مانحة لها بعض الوقت لتفكر:

- "إنه سؤال بسيط يا جايدا، هل أحمد يرغب بك الآن بعد أن قهر ظروفه، وصار رجل أعمال ناجح، كهدف مكمل لقهره لهذه الظروف، أم أنه يكن لك مشاعر حقيقية، جعلته يرسل هذه الرسالة اليائسة، لأنه بالفعل لا يستطيع أن يحيا بدونك؟".

صمتت لفترة أطول واحترمت أنا صمتها، حتى بدأت تتحدث بصوت متردد غير واثق، وقالت:

- "أعتقد أنني بالنسبة له حياة، فأن ينتظرني كل هذا الوقت دون زواج، ويرسل لي رسالة تحمل هذا المعنى، ولا يبالي بأي شيء غيري، فهذا يعني أنه يراني كذلك.. حياةً وليس هدفًا".

هززت لها رأسي بمعني أني موافقة على منطقها ثم قلت:

- "لا يبالي بأي شيء غيرك.. هذا تعبير دقيق ومهم جدا، دعينا نتخيل الآتي، هل لو انعكست الأدوار .. سيكون قرارك أنك لن تبالي بشيء غيره.. حتى لو كان إفساد حياة امرأة أخرى وطفلة، وهل ستعتبرين هذا هو الحب الحقيقي أو لنقل الغرام الحقيقي".

اتسعت عيناها باستنكار، ثم قالت بسرعة:

- "مستحيل بالطبع أن أبني حياتي على تعاسة امرأة أخرى، ولو أحببته لحافظت له على بيته واستقراره، ولكن..

ابتسمت لها وقلت:

- "ليس هناك لكن.. الحب لا يتجزأ.. والأنانية فيه فقط، ملك لعاشقين كتب لهما أن يكونا معا دون قيود، وليس لأحدهما حياة كاملة، وطفلة، وزوج لا يتوقع الغدر".

همت أن تقاطعني فأشرت لها أن تتركني أكمل وقلت:

- "هذا هو حديث العقل فقط، وأنا امرأة مثلك.. وأعرف أن العاطفة لدينا أعلى وأكثر سيطرة، وأريد منك أن تجيبي على بعض التساؤلات قبل أن أتركك تتحدثين بحرية".

هزت رأسها أن أستمر فقلت:

- "هل حاولت أن تحبي زوجك عمر.. هل منحتِ لنفسك مثل هذه الفرصة، وهل كنتِ سعيدة ذات يوم لأنه كان بجوارك؟".

ابتلعت ريقها وهي تدير الأسئلة في عقلها ثم قالت:

- "هل يمكن أن تطلبي لي فنجانا من القهوة السوداء دون سكر؟"

ابتسمت لها وقلت:

- "بالطبع، واسمحي لي أن ننتقل إلى تلك الأريكة المريحة، لأن جلسة المكتب رسمية إلى حد ما، وقد اتفقنا أن نصير أصدقاء".

هزت رأسها بمعنى أن لا بأس، فطلبت لنا قدحين من القهوة، وانتقلنا إلى الأريكة، كنوع من التغيير والتقرب، كي لا تشعر بأنني أقوم بلومها أو استجوابها.

لأنني تفاجأت بنفسي أتخطى حدودي معها، وأطرق كل النقاط الساخنة دون هوادة، ومع انفعالها، قد لا تتقبل ما أقودها إليه، وأنا أخشى مع انفعالي معها أن ينعكس ما أهدف إليه.

أتت القهوة، فتناولنا بضع رشفات قبل أن تقول:

- "سأجيب على تساؤلاتك من النهاية".

منحتها نظرة مهتمة، وقلت:

- "كلي لك آذان مصغية".

ارتشفت رشفة إضافية من قهوتها، وأزاحت شعرها الذي تهدل على وجهها جانبا، ثم قالت:

- "عمر ابن ناس حقيقي.. ورجل بمعنى الكلمة، لم تواجهني مشكلة في حياتي، إلا وكان سندا لي، ولكنه من النوع الذي لا يحب الحديث عن مشاعره وإظهارها، على عكسي بالطبع، وهو بالطبع عيب يمكن تداركه، ولكني لم أحاول ولو مرة واحدة أن أبدله.. هو أمر واقع وأنا مستسلمة له، وأراحني منه أنه لم يحاول واكتفى بما يحصل عليه، فهو لم يكن يدري بتلك الحرب المستعرة بأعماقي، ولا برماد الماضي الذي يغطي قلبي".

صمتت لتلتقط بعض أنفاسها ثم أكملت:

- "ولكن هذا لا يعني أنه بارد أو تمثال حجري، ففي بعض الأيام وخاصة في أيام تقفيل الميزانيات والجرد

في نهاية السنة، كنت أحيا أياما عصيبة مضغوطة، هذا بالطبع غير الإرهاق البدني، وفي بعض تلك الليالي، لم أكن أجد راحتي إلا في الاستلقاء بين ذراعيه، ولا أخفي عليك أنني كنت أشعر بالكثير من الراحة والأمان والامتنان له، ولكني لم أترجم هذا يوما إلى أنه نوع من أنواع الحب، ولكنه كان دائما هناك، وهو شيء يطمئنني".

وعند هذه النقطة صمتت، وكأنها هي نفسها تحاول أن تستوعب ما تخبرني به، عندما اكتشفت أن مشاعرها قد مالت لما تحاول أن تنكره، وكأنها تكتشف نفسها للمرة الأولى فتركتها لأفكارها، حتى عادت وقالت:

- "لم أر أن كل هذا حب، ولذلك، لم أحاول يوما أن أحبه ذلك الحب الذي أختص به أحمد فقط، رغم أن أحمد غاب عن مشاهد كثيرة في حياتي، كان هو متواجد فيها".

ابتلعت ريقها ثم تناولت رشفة أخيرة من فنجانها، وظهر عليها الاضطراب والحيرة، والمعاناة، وغرغرت

عيناها بالدموع وهي تقول:

- "لقد أصبحت مشوشة جدا الآن، لم أعد أعرف حقا هل أحب عمر أم لا، وهل أريد أحمد مهما كانت التضحيات أم لا..

أنا أجيب عن تساؤلاتك، فتتولد في عقلي جبال منها، وكأنه كانت هناك غشاوة على عيني، والآن أرى الأمور بوضوح لدرجة أنها تعميني".

اقتربت منها وقبضت على يدها في قوة، فجفلت قبل أن تسترخي وتتركها في يدي، ونظرت أنا في عينيها مباشرة، وقد شعرت بأنني أتحفز نحوها دون إرادة مني، لأقول لها بكل قسوة:

- "مشكلتك الوحيدة في هذه الحياة يا جايدا ليست أحمد أو عمر أو قلبك.. مشكلتك هي الاستسلام، وهذا قد يمر بالأنثى مرة فتقبله، ومرة فترفضه، ومرة فتتمرد عليه. ولكنك أنت مستسلمة على الدوام..

استسلمت لحب أحمد حتى استنفدتِ روحك معه ولم يعد لعمر نصيب من مشاعرك، واستسلمتي للظروف التي قهرتكما فابتعدتِ عن أحمد، واستسلمتِ لارتباطك بعمر فتزوجتِ، واستسلمتِ لروتينية حياتك حتى غشيها البرود، والآن تستسلمين لعودة أحمد ليهدم لك استقرارك وبيتك، لقد خذلتِ نفسك في كل مرحلة من مراحل حياتك، مانحة لنفسك مبررا جديدا في كل مرة تستسلمين فيها.

مشكلتك ليست في أنك مغرمة بأحمد، أو أن الحياة روتينية، أو أن الحب ليس متواجدا في حياتك، مشكلتك الكبرى هي إدمانك الدائم للقيام بدور الضحية، وتلذذك بهذا.

أنت لديك عمل ناجح وطفلة جميلة يتمناها الجميع، وزوج يحسدك عليه الكثيرون، ألا يستحق هذا أن تقاتلي ولو مرة واحدة في حياتك، أن تخوضي معركة التضحية من أجل نفسك.

ألا يستحق هذا أن تقهري قناعاتك.. الوقت ليس ضيقا يا جايدا، بل الضيق هو عالمك وردة فعلك".

وفجأة ودون مقدمات، وجدت أنفاسها تتلاحق، وصدرها يعلو ويهبط، شفتاها تهتزان، وجسدها يتوتر ،وعيناها تتسعان في صدمة، وهي تسحب يدها من يدي في قوة، وتضعها على عينيها، وتدخل في وصلة بكاء شديدة فطرت قلبي.

لا أعرف لماذا قسوت عليها إلى هذا الحد؟

ولا لماذا صدمتها بكل هذه الحقائق دفعة واحدة؟

هل كنت أحملها نتيجة عجزي وألمي؟

هل لأنها تمتلك الزوج والطفلة، والحياة التي أتمناها، ولكنها تبحث عن المزيد؟!

هل هذا ما جعلني أنسى دوري كطبيبة نفسية، وأنسى أنها في محنة، فأهاجمها بكل هذه القسوة؟

لقد طغت مشاكلي على تفاعلي معها، فلم أنتبه لهذا إلا بعد فوات الأوان، وبدلا من أن أساعدها، أظهرت لها قبحها، وواجهتها بضعفها، وحملتها ذنوب كل ما حدث في حياتها.

وبدلا من أن أكون السند، كنت سكينا جديدا يذبحها.

كنت مصدومة من نفسي أكثر من صدمتها هي، ليس على الطبيب النفسي أن يغرق مرضاه في مشكلاته، ليس عليه أن يخرج عن الاحترافية، ليس عليه أن يكون قاض وجلاد.

بل عليه أن يكون مرفأ الأمان لمرضاه.

إنني أنهار أسرع من اعتقادي، وهذا جعل الأمور معها تنتحي منحا كارثيا وغير متوقع.

فبعد أن أنهت بكائها، صمتت لبعض الوقت ولم تنطق بكلمة، ثم رفعت رأسها، وجففت دموعها، ومنحتني نظرة طويلة متهمة، قبل أن تنهض بسرعة، وتخطف

حقيبتها من فوق الطاولة المقابلة للمكتب، وتغادر دون أن تبالي بنداءاتي المتكررة عليها، أو اعتذاري لها.

لقد ضغطت عليها وهي في أكثر أيامها هشاشة، وكان هذا خطأ مهنيا كبيرا، ولم أعرف نتيجة هذا الخطأ إلا بعد عدة أشهر، وكان هذا أحد أسباب انهياري.

ضحى

(11)

في الخمسة أيام التالية، تغيبت عن العيادة، وقامت تهاني بإعادة ترتيب وتنسيق جميع مواعيد مرضاي، مدعية أنني أحضر مؤتمرا دوليا في إحدى البلدان الخليجية.

وخلال هذه الأيام الخمسة لم أغادر المنزل قط، بل لم أبرح غرفتي، ولم استجب لإلحاح أمي التي نحلت من الحزن والمرض، لأخرج وأجلس معها.

بل قطعت أول ثلاثة أيام في فراشي صامتة، بلا نوم أو راحة، وصورة جايدا لا تفارق خيالي، ومصير روان متجسدا أمامي، والفكرة الوحيدة التي سكنت بأعماقي أنني صرت لعنة على مرضاي، وعلى كل من يطلب مساعدتي، بل على كل من حولي.

لقد عدت مجددا لدائرتي المظلمة، دائرة الانتقام البشعة، وكان هذا يثقل روحي بشكل كبير، وعدت أفكر للمرة الألف في الانتحار..

عدم وجودي في هذه الحياة سيكون نعمة للكثيرين.

ولا أعرف لماذا لم أفكر وقتها، في أن أصلح نفسي، أو أن أتوقف نهائيا عن ممارسة مهنتي؟

كنت مضغوطة بشكل مفزع، عمياء عن كل شيء إلا نفسي، تعبث بي أفكار شريرة بلا هوادة، وأنا معها كريشة في مهب الريح.

في بعض الأحيان حاولت أمي إجباري على تناول الطعام، وعندما فشلت، قامت باستدعاء عتاب، التي فشلت هي الأخرى في إخراجي من حالتي المتردية، أو في جعلي أتناول الطعام.

وفي النهاية، هزمني جسدي، ونمت ليومين كاملين، وعندما أفقت لم يكن بروحي أية مشاعر سلبية، ولم يعد ضميري يؤنبني.

لقد وصلت لنقطة النهاية بالفعل، وكان علي أن أطلب مساعدة متخصصة كما يفعل كل مرضاي، ولكنني انتشيت بما شعرت به من قوة خادعة تسري في

عروق، حتى أني أقبلت على الطعام بطريقة نهمة أسعدت أمي، وأعادت لها روحها المضطربة، بل هاتفت عتاب وطمأنتها، وهاتفت تهاني كي تبدأ في تنظيم مواعيدي مع مرضاي.

لم أكن أعرف هل هي صحوة الموت، أم هي رحمة من الله أن جعل عقلي يمحو من ذاكرتي كل الأحاسيس السلبية وقتها.

ولكن لو جئت لمتخصصة مثلي، وحللت الأمر، لأخبرتني أن ما حدث معي هو عبور اضطراري مؤقت للمحنة، واستدعاء قصري لسلمى القوية والقاسية التي كانت تحيا في دبي قبل تعرفها على عاصم.

لقد استيقظ الوحش الكامن بأعماقي، رافضا كل مظاهر الضعف أو الاستسلام..

وتحولت شظايا روحي المهشمة، إلى نصال حادة مستعدة أن تؤذي، وتجرح، وتقتل.

وبرغم وجود عتاب وأمي بجواري، لم يكن هذا كافيا أبدا لأعود لحياتي أو شخصيتي الطبيعية، لأن الوحيد الذي كان وجوده بجواري سيصنع فارقا حقيقيا، قد خذلني، وتزوج، وصرت صفحة منتهية في حياته.

والنصيحة الوحيدة الفعالة من أي طبيب نفسي محترم لمريضه، والتي لم أطبقها على نفسي، كي أساعدها على عبور محنة الخذلان، هي :

لا تبحث عن النجاة، أو الدواء أو المساعدة عند من خذلك، فكيف لمسبب الداء أن يمنحك هو الدواء، إنه المرض، البعد عنه ونسيانه هو العلاج الوحيد للقضاء على تأثيره السلبي.

وحتى هذه اللحظة، وبرغم قسوة عاصم ونذالته، ولكنه مازال يسيطر على مفاتيح روحي، ويقودني ببطء وثقة إلى شفير الهاوية.

إنني أغرق في ظلامي بسرعة كبيرة، والاستسلام الذي لمت عليه روان، ومن بعدها جايدا أمارسه مع نفسي

ومرضاي بكل قسوة.

ولم تكن جايدا ضحيتي الأخيرة، ولكنها كانت المؤشر الصريح الذي غفلت عنه، أو تجاهلته بكامل رغبتي، فبعد عاصم لم أعد أرى للحياة جدوى، وأصبحت أنا من أدمر نفسي بنفسي، وذلك الصوت الكريه بأعماقي يشجعني على المضي أكثر، وكأن عقلي الباطن، يرغب في توريطي أكثر حتى أصل للنهاية الحتمية.

بعدها عاد العمل للانتظام في عيادتي مرة أخرى لعدة أشهر، ساق لي القدر خلالها ضحى.

وضحى، هي ضحية انهياري التالية، وضحية ظروف قاتلة، استسلمت لها مثلي، لتحقق حلمها، وكان هذا تحقيقا للمقولة الشهيرة، إن حلمك هو كابوس شخص آخر.

ومعها أدركت متأخرا جدا، أن حالتي تتفاقم بشكل مفزع، وأنني أصبحت الطبيبة النفسية التي وقعت في

مصيدة المرض النفسي، وأن وجودي أصبح مؤذيا بشكل خطير.

وضحى فتاة في السابعة والعشرين من عمرها، جميلة الملامح، حادة النظرات، ذات جسد كالوتر المشدود، تظهر لعيني كمهرة برية قلقة، لديها في عينيها نظرة تحدٍ ثقيلة، تدل على معارك هائلة خاضتها، وتخوضها بقلب دوامة الحياة .

ترتدي ضحى ملابس جامحة كشخصيتها، تضيف إليها لمستها الخاصة التي تجعلها ملفتة للنظر بطريقة مستفزة .

ففوق البلوزة الضيقة القصيرة التي تبرز مع بعض الحركة جزءا من ظهرها العاري، يوجد العديد من الإكسسوارات الملفتة، عقد من العقيق ينتهي بقلادة من الفضة تحمل اسمها، مع قرط كبير الحجم مربع الشكل، وعدة أساور من العقيق ملائمة للعقد الذي ترتديه.

تلتقي البلوزة بسروال من الجينز الضيق، وصندل يبرز طلاء أصابعها الزاهي ، وشعرها البني يسترسل طبيعيا في تسريحه تبرز جمال عينيها اللتان طليت رموشهما بمسكرة ثقيلة، لا تستطيع أن تحدد إن كانت رموشها بهذا الطول طبيعية أم صناعية، كما أنها طوال الوقت ترتدي نظارتها الشمسية الأنيقة ، وتخلعها في حركة عصبية عندما تشعر بالتوتر.

عندما قابلتها للمرة الأولى، واقترحت عليها أن تدون مشكلتها على الورق، رفضت ضحى طلبي بشكل كامل، وتعللت بأنها لا تطيق الكتابة منذ دخلت المدرسة، فلم أضغط عليها أكثر، وأخبرتها أن لديها مطلق الحرية لتتحدث، وعليها أن تعتبرني صديقتها لا طبيبتها النفسية.

فهزت ضحى رأسها في تفهم قبل أن تقول:

- "لا أعرف يا سلمي كيف أبدأ.. هل تسمحين لي بمخاطبتك باسمك مجردا من اللقب، فهو يشعرني بكثير من التوتر، ويشعرني بأني مريضة بالفعل".

ابتسمت لها وقلت:

- "لا مانع عندي طبعا، وحتى هذه اللحظة، لا يمكن أن نحدد إن كان لديك مرض نفسي بالفعل، أو أنك تقعين تحت ضغوط أقوى من تحملك.. أنا أرغب في سماعك لا الحكم عليك، وأرغب في مساعدتك لا نقدك، عليك أن تكوني على راحتك أنا لست مشكلتك، أنا صديقتك التي تريد لك كل الخير".

برغم حديثي المطمئن لها شعرت بها تتوتر، ولاحظت أن تنفسها يتسارع، ربما لأنها ستكشف لي جزءا من أسرارها الصادمة ، وتخشى أن تتبدل نظرتي لها، أو أن أتخذ جانبا مضادا لها، أو أتسبب في مشكلة كبيرة لها، فلديها سر خطير جدا، وروحها تئن منه، وهي بحاجة للبوح وإفراغ ما يثقل ضميرها، وأعتقد أنها نفسها تعرف الحل الوحيد له، ولكنها لن تجرؤ على القيام به.

تركتها تستعيد سيطرتها على نفسها، وتعدل من وضع نظارتها السوداء عدة مرات على وجهها قبل أن تنحيها جانبا في ضيق، ثم بدأت تتكلم..

تحدثت في البداية عن مخاوفها، وكأنها تريد وضع بعض النقط على الحروف، وتجنب نفسها، ردات فعلي غير المتوقعة، وبصوتها الرقيق قالت:

- "أنا على وشك أن أقيء في وجهك، معاناة سنوات متتالية من الألم، والقرف، والقذارة. أتوقع أن تتغير صورتي البريئة في عينيك بعدها إلى النقيض تماما، وما أرجوه منك هو بعض الرفق، لأني لو ذهبت لن أعود مرة أخرى، ولا أعرف بعدها متى سيكون لدي القوة، لأطلب من أحد آخر المساعدة، وربما لن أطلبها أبدا".

هممت بمقاطعتها، لأخبرها أني هنا من أجلها، ولكنها أشارت لي أن أنتظر حتى تنتهي، وأكملت:

- "أنا الآن في حكم المريضة، بل أنا مريضة بالفعل، وأنت الطبيبة الوحيدة التي بيدها مساعدتي، لأنني ضغطت على نفسي بقوة، لأحضر إلى عيادتك، وهو شيء لو تعلمين عظيم.. فتخيري أيسر دواء، حتى لا تعيدني لنقطة الصفر التي قد تكون نقطة النهاية،

أحتاج لأن أتحرر من كل ما يثقل روحي لأتجاوز محنتي.

معك أريد أن أكسر قيودي، وأخرج ما بأعماقي من صديد، أنت الوحيدة التي سأفتح أمامها صندوقي الأسود، ومعك سأواجه ما كنت أخشاه، ترفقي بي لأني أحتاج لمرشد لا لجلاد، فأنا أعرف أخطائي، وأعرف مرضي، وأتمنى أن تكوني أنت العلاج، وبداية تكفيري لذنوبي".

أنهت حديثها، فابتسمت لها، وأردت أن أطمئنها أكثر، فقلت:

- "أعتبريني بئرا بلا قرار، ستلقي به أسرارك فيبتلعها إلى الأبد، كما أني هنا بجوارك، ومن أجلك أنت، أرغب في أن تفرغي ما يثقل كاهلك، لأحمله أنا على كاهلي، وسأكون مرآتك، ولن أكون جلادك".

عادت وارتدت نظارتها السوداء، ثم قالت:

- "أشكرك على تفهمك، فأنا أهش مما تتصورين، وأنا الآن في مفترق طرق، وأنت مرشدتي الوحيدة، وربما طوق النجاة الأخير".

كانت متوترة، ومترددة، وتحاول أن تحصل مني على أي بصيص من الأمان، كي تكمل قصتها التي تراها شائنة ومنفرة، فابتسمت لها وقلت:

- "معا سنتخطى كل ما يزعجك أو يثير قلقك ومخاوفك، تحدثي معي بكامل حريتك، أنت جئت لصديقة، وهذه الصديقة لديها من العلم، ما يمكن أن يساعدك، ولن تبخل أو تقسو عليك".

قلت جملتي، وأنا أفكر أن العديد من المرضى النفسيين، يحتاجون لوقت طويل كي يشعروا بالأمان مع أطبائهم، وضحى كانت بالفعل عند مرحلة فاصلة في حياتها، وربما لأول مرة تشعر بأنها ستغرق، لذلك فهي قد ضغطت على نفسها لتأتي إلي.

كنت أشعر بشفقة كبيرة عليها، خاصة وأن ملامحها الدقيقة الرقيقة كانت تجعلني أراها كطفلة في مهب ريح الحياة، وقررت أن أساعدها لأقصى مدى مهما كلف الأمر..

ومن ارتخاء جسدها على المقعد أدركت أن توترها قد بدأ يتلاشى، وأنها ستبدأ في مد جسور التواصل بيننا، وبالفعل تنفست بعمق، ثم قالت:

- "بدأت حياتي بشكل طبيعي، إلى حد يجعلني أتساءل متى بدأ كل هذا الدمار، كنت مجرد طفلة تستقبل الحياة بفرحة، وتستقبلها الحياة بابتسامة، لم يبدأ بينهما صراع الحقد المقدس بعد، فقط ما لم أعلمه في حينها، أن الحياة كانت تتربص بي لتعلمني أقسى دروسها وبالطريقة الصعبة ، وكنت أنا في بحرها ألهو وألعب دون حذر.

في بداية حياته كان أبي يقوم بمسئولياته، فيذهب للعمل صباحاً، ويعود مساءً، فلا نراه كثيرا، وأمي كانت

مجرد سيدة منزل، تفني نفسها من أجل زوجها وصغارها.

طفولة عادية جداً ولا أذكر فيها أي لحظة حزن، فلم أكن قد تعلمته بعد.

الحقيقة أنني لا أعرف تحديداً تلك اللحظة، التي بدأ كل شيء فيها يتبدل ويتغير، ربما هي اللحظة التي فقد فيها أبي عمله، واكتفى هو بفقدانه فلم يبحث عن عمل جديد.

أو هي تلك اللحظة التي لم تعد تلك المبالغ التي يرسلها له أشقائه من إيطاليا والخليج تكفي مصروفات الصغار، الذين لم يعودوا صغارا، تلك النقود التي غيرت كل شيء في حياتنا.

ففي البداية كانت النقود تكفي ، وتزيد، وهذا جعل أبي يظن أنها أبدية، فتعلم شرب الحشيش، ثم اتجه إلى الخمور، وكان الأمر يتم بشكل علني في البيت، دون الاهتمام بأن الأب قدوة، وأن الصغار سيقلدونه، مهما

حاول منعهم، وهو الشيء الذي لم يحدث أبدا، فقد وصل سوء الأمر إلى أن شقيقي الأكبر كان يتقاسم معه سجائر المزاج، وكؤوس الخمر، وتدريجيا، دخلت أمي في القصة، وبعدها تبعها الجميع، وصارت تلك الأموال لعنة علينا جميعا.

فمعظمها يذهب إما إلى الحشيش، أو الخمور، البيت كله أصبح يتعاطى ما يجعل عقله يذهب، وكأن الجميع يهربون من قسوة حياة لم تقسُ عليهم بطريقة حقيقية.

هم فقط يتماهون مع بيئتهم، ويعيشون شعور الضحية المعتاد.

ولسبب ما بدأت تلك الأموال تقل، فلن يساعدك أحد إلى الأبد، خاصة وأن مسئوليات كل شيء تزيد على الجميع، واليد التي كانت تساعد بما يفيض، بدأت تقطر ثم انسحبت تماما.

وأخذت المشكلات تتفاقم في منزلنا في هذه الفترة عصيبة، الذي صار مستنقعا مخيفا من القذارة ..

نعم القذارة!.

إن البيت الذي لا يقوم على عماد الأب هو مجرد مستنقع يحيا فيه الأبناء على شفا الهاوية.

وعندما يكون على كل شخص أن يتحمل عبء تربية نفسه، والإنفاق عليها، بل وعلى الباقين، وفي زمن لقمة العيش لا تأتي فيه بسهولة، لا يكون أمامك إلا طرق محددة من أجل الحصول على المال الوفير الذي يكفي للمتطلبات المتفاقمة والمتزايدة بشكل يصيب بالجنون.

وهذه الطرق للأسف كثيرة، وسبلها معروفة، فقط عليك أن تقرر القيام بالأمر، وسيوفر لك زبانية الحرام ألف طريق كي تتورط أكثر، وكلما أغلق في وجهك باب، سيوفرون لك بابا آخر.

وعندما ضاقت الأمور بنا تماما، وزادت المشكلات، أعلنت داليا أنها عثرت عن عمل براتب كبير يكفي متطلبات هذه الأسرة المفككة، ولم يتسائل أحد عن طبيعة العمل، ولم يلتفت أحد إلا إلى الأموال التي عادت تتدفق، وبثت الحياة في عروقهم من جديد.

فما هو العمل الذي يتطلب مبيتا خارج المنزل، والعودة بكل هذا الإنهاك، ورائحة الخمر والبيرة تفوح منها كعطر رخيص .

هي لم تكن تعمل ممرضة بالطبع.

الكل علم!

والكل تجاهل!

وصارت كلمة داليا برغم سنها الصغير هي الكلمة العليا علينا جميعا، أصبحت هي رجل البيت، وصاحبة الكلمة المسموعة فيه.

ومع الطلبات التي لا تنتهي، لم ترأف داليا بنفسها لحظة واحدة، وأخذت تحرق في روحها وجسدها بلا توقف. ولأنني كنت المقربة منها، غمرتني معها بالأموال الحرام، وبدأت نظرتي للحياة تتغير، وأنا في سن الرابعة عشر.

من كان في سني وقتها مازال بالضفائر، ولم تعتد عيناه بعد التطلع لوهج شمس الحياة، أما أنا فكنت أواجهها بالملابس الأنيقة التي تتبع أحدث خطوط الموضة، ونظارة الشمس غالية الثمن، والمكياج والعطور المستوردة.

وبدأت أذهب معها للنادي الصحي، وخلال عامين، أصبحت أنثى تلفت أنظار الشباب، ويسعون إليها لخطب ودها، وتذوق تلك الثمار التي فار بها جسدها، بعد أن خرطه خراط البنات كما يقولون .

كنت أنا منبهرة بما يحدث، وكنت حريصة على إرضاء داليا، كي لا تتوقف نافورة الأموال والهدايا التي كانت تحصل عليها من زبائنها، بل إنني تعودت على سلوكها

العنيف معي ومزاجها المتقلب، خاصة في تلك الليالي التي تبيت فيها في الخارج وتعود منهكة.

كنت أسمع أنينها أثناء نومها، وسبابها لأشخاص لا أعرفهم بألفاظ يندى لها الجبين، وبرغم أنني كنت أرى معاناتها، إلا أنني تمنيت أن أخوضها لكي يكون لي مالي الخاص، مالي الكثير الخاص.

وفي هذه الفترة تعرفت على إيهاب، شاب وسيم وعاطل يتحدث عن كل شيء برفض، ويعتنق أفكار ثورية جامحة بلا إيمان حقيقي، وإن كان لا يملك من الرقي شيئا، ولكنه كان يمتلك لسانا ساحرا، وشخصية متلونة تمنح أمانا وثقةً زائفين.

أسرتني شخصيته في هذا العمر الصغير، خاصة أنه كان يعاملني كامرأة لا كفتاة مراهقة، وعندما أغدقت عليه الهدايا، بدأ يعاملني كملكة فانجرفت معه، وهو يفتح أمامي مغارة عالم جديد مثير، بكل تهور ودون حياء.

وفي إحدى الليالي الحالمة التي جمعتنا فيها شقته، بدأ حوارنا والذي تطور فيما بعد لأعبر في هذا العالم القذر معه خطوة جديدة، لم أكن أعرف أنها أولى خطوات الضياع:

- "هل تحبينني يا ضحى؟".

قالها إيهاب بصوت حنون دافق ، وهو يناولني سيجارة الحشيش، التي كانت رفيقتنا طوال الليلة.

كنت أحبه ذلك الحب الطفولي الذي ينبع من الاهتمام، ومجرد الرغبة لأختلف عن من هم في سني ، ولأشعر بأنني أكبر ومرغوبة أكثر، ولأن نمو عقلي يفوق سني ، فإنني أجبته بعبارة قالها لي ذات مرة :

- " أنا أحبك أكثر من حياتي ذاتها".

شاعت الابتسامة في وجهه حتى أنها زادته وسامة، فقال لي معابثا :

- " ولأي قدر تحبينني ؟".

عبرت وجهي ابتسامة أكثر عبثا، وظهر على ملامحي تأثير الحشيش جليا، كنت أعرف العبارة التي يعشقها، كما أعرف اللون الذي يفضلة، والأغنية التي يهوى سماعها دائما، لذا فإنني قلت بدلال وشقاوة :

- " أحبك أكثر من الحشيش ذاته".

كانت هذه هي لزمتي الشهيرة، والتي يعشق سماعها، وكمكافأة منه منحني يومها قبلة طويلة، ويداه تعبث في صدري وأنحاء جسدي، قبل أن ينزع ملابسي وأنا مستسلمة له تماما، اكتشف معه ذلك العالم المثير المفعم بالرغبة والشهوة.

ولأنه يدرك كوني مازلت عذراء، كانت العلاقة خارجية بالكامل، فلم أشعر منها إلا بالمتعة، ويومها وصلت لأولى ذرواتي في هذه السن المبكرة، وكان هذا مخدرا جديدا أدمنته واشتقت له على الدوام، دون أن أفكر لحظة في عواقب ما أقوم به، فمن يجرؤ على محاسبتي، وسط المستنقع الذي أحيا به.

وسار الأمر بيننا على هذا المنوال، لعدة أشهر، فدخلت على يد إيهاب عالم الرجال، وتبدلت نظرتي للعالم تماما، صرت أكثر نضجا وهدوءا وخبثا، وشبقا وتطلبا.

أدخلني إيهاب عالم الرجال مبكرا، وكان من الممكن أن يمضي الحال، كما يحدث مع معظم الفتيات، ويمر الأمر كمجرد تجارب يتفاخرن بها سرا في جلساتهن وينتهي بهن الأمر بالزواج، ولكن طموحي كان أكبر وأوسع، فلا رقيب غير ضمير لم يتعلم بعد كيف يستيقظ بداخل قلب طفلة تحمل جسد، وتجارب النساء.

كان إيهاب يملك كل الخبرات التي مكنته من إيقاظ أنوثتي وجسدي في هذه السن المتقدمة، فما سمعته في أحد مقاطع اليوتيوب لطبيبة مصرية شهيرة متخصصة في العلوم الجنسية، أن الأنثى لو تركت دون مثيرات جنسية حقيقية، لن يستيقظ جسدها مبكرا، وسيمر بالأطوار النفسية والجنسية الطبيعية والصحية، وستمنعهم من الدخول في دوامة أفلام

البورنو، أو الخطيئة، أو البحث عن إشباع شاذ لهذه الرغبات، بما يتنافي مع الدين أو الفطرة البشرية.

ولكن حياتي لم تكن طبيعية بأي حال من الأحول ، فلو مرت راهبة بما مررت به لتحولت لسالومي ، من يجلس ملاصقا للنيران لابد أن يحترق بها.

لم تكن تلك الرغبات وحدها ما يشغل عقلي، فايهاب كفيل بها، ولكنني كنت أفكر دائما في شيء أكبر، كنت أحتاج على وجه السرعة إلى مصدر خاص بي للدخل، فالأموال التي أحصل عليها من داليا لم تعد تكفيني، أو تكفي طلبات إيهاب التي لا تنتهي.

وكأن الشيطان كان ينصت لي في هذه اللحظات فاستجاب دعائي، وأتت اللحظة التي انضممت فيها لشلة فاسدة من الفتيات الجامعيات كان إيهاب على صلة بهن رغم أنه ليس بجامعي، وعمره يفوق أعمارهن بخمس سنوات، وبدأنا نسهر في الملاهي الليلية منخفضة التكلفة.

وذات يوم قامت إحدى الفتيات بدعوتي لعيد ميلادها، وهناك تعرفت على كنزي ونيهال، ليبدأ تحول جديد في مسيرة حياتي.

كنزي ونهال، شقيقتان لعوبتان منفتحتان، لا تتوقف ضحكاتهما لحظة، ويرتديان دائما ثيابا غالية الثمن، تفوح بعطور أغلى ثمنا.

كنزي كانت الكبرى لها نظرة خبيثة ولسان فاحش لا يتوقف عن قول النكات البذيئة، ونهال الصغرى، تبدو كتابع لها، وكانت أقربهن إلى قلبي، ومن وقتها تغير مستوى السهرات التي كنت أقوم بها.

عرفت فيما بعد أن كنزي ونهال متزوجتان من خليجيان، مجرد زواج يكفل لكليهما حرية السفر والتنقل بين البلدين، وكل منهما تمارس مهنة الدعارة، لن أجملها لكِ، بل إن الكبرى تجبر بناتها على ممارستها، ولكن مع المميزين من الزبائن، مستغلة صغر سنهن وجمالهن، وتوفر أغشية البكارة الصيني التي كانت

تخدع الزبائن، فتقدمهن لهم كعذراوات دائما، وبسعر فادح.

وذات يوم أخبرت نهال أنني بحاجة إلى المال، وعندما أرادت أن تمنحني بعضه، أخبرتها أنني أريد أن أحصل على مصدر دائم، لا دين يظل معلقا في عنقي لها، لا أستطيع سداده.

وهنا أخبرتني أن المال سهل الحصول عليه، ولكنه لا يأتي إلا بالعمل، فأخبرتها أني مستعدة لعمل أي شيء مقابل المال، فقالت لي بابتسامة خبيثة تشبه ابتسامة أختها الكبرى كنزي:

- "أي شيء ..أي شيء".

نظرت في عينيها بوقاحة وقلت:

- "مهما كان".

وقد كان، لتبدأ مرحلة التورط والسقوط الحقيقية، التي سعيت لها بكامل قوتي، وأمام عيني لم يكن إلا

المال، مفتاح كل شيء.

عندما أخبرتني كنزي أن عملي جاهز، وأن علي أن أمر عليها في شقتها في التاسعة مساءا، وقد حرصت في التأكيد على نظافتي الشخصية، وارتدائي ملابس داخلية جديدة، فهي من كانت تدير كل شيء.

لم أعرف لماذا في هذا الوقت تذكرت على الفور آلام شقيقتي داليا، وأنينها، وسبابها أثناء نومها، وبدأت أشعر برهبة وخوف مما أنا مقبلة عليه، ولكني لم أتراجع.

لم يكن العالم الذي دخلته، يحتوي فقط على النجاسة، والوقاحة، والانحلال، والألم، والأنين، كما صور لي خيالي بل كان عالما مبهرا، من الحفلات والأطعمة والأزياء.

إن كنزي ونهال يعملان على مستويات معينة من الخليجيين والأجانب، الصفوة لو أردنا الدقة.

فهناك ترى الملابس الأنيقة، الموبايلات الحديثة، النقود التي بلا حساب، عالم مختلف كليا عما كنت أعيشه، عالم مبهر لفتاة تحلم أن تكون جزءا منه.

لم تكن بدايتي في هذا العالم مع أول سهره، كنت لعدة سهرات مجرد مشاهدة، تشاهد ما يحدث بعيون منبهرة، وروح مشتاقة، وكنت أقوم فيه بالمرافقة لا أكثر، أدخل فتاة وأخرج فتاة.

ورغم أن داليا لم تبخل علي بالنقود، إلا أنني تهيأت تماما لخوض الأمر، وجذبت داليا إلى العالم الجديد، حتى أنها أخبرتني أنها نقلة نوعية لها، فهي كانت تعمل مع حثالة البشر، وكانت تتحمل ألام وروائح وإهانة لا يمكن تصورها.

جاء الأمر عندما أعجب أحد الشباب العرب بي، وطلب مني بعيدا عن كنزي ونهال أن أرتب لسهرة تحضر فيها بعض الفتيات احتفالا بشيء ما لا أذكره.

ولأن المبلغ المعروض كان ضخماً وبالدولار، وافقت، وعندما أخبرت داليا لم تشجعني في البداية، ولكنها في النهاية رضخت لإصراري، وذهبنا معا.

ولأن السهرة كانت ستضم الفتيات فقط، ولن يكون هناك نساء، فهي كانت آمنة إلى حد ما، فالجميع يعرف القواعد؛ الممارسات الكاملة مع النساء، بينما الفتيات للمرح.

كانت رغبتي جامحة، وتجاربي مع إيهاب أزالت كل خوف من داخلي، فأخيرا سيكون لي مالي الخاص.

ذهبنا إلى شقة مفروشة مستأجرة ، وكان هناك ثلاثة من الفتيات غير داليا التي رتبت كل شيء من واقع خبرتها وتمرسها.

والحقيقة أنني كنت الفتاة الوحيدة بينهن، ولكن طالما هناك قواعد، فلن يتم كشف الأمر، والفتيات كن محترفات ولم تكن المرة الأولى التي يقمن فيها بخداع

الزبائن، وكانت المرة الأولى التي أشعر فيها بما تعانيه وتكابده داليا من أجل الحصول على الأموال .

فالمطلوب منا مهما كان سلوك الزبون أن ننفذ رغباته ، ونسعده ، حتى لو لم تكن أرواحنا تطيق وجوده أو رغباته التي بالطبع لم تكن بريئة.

كانت الموائد تغص بالحشيش، والخمور المتنوعة غالية الثمن، كنت معتادة على الحشيش، ولكني لم أكن معتادة على شرب الخمور، فقط تناولت عدة مرات البيرة أو الـ أي دي، فلم أكن أحب المزاج الذي يمنحه لي، ولم أحب أن أفقد سيطرتي على نفسي.

ولكني تماشيا مع الجو العام، شربت، ونصحتني داليا أن أشرب أكثر، كي أتحمل سخافات الزبائن ومضايقتهم، فهم كانوا يعاملونا كالجواري، وأمرهم لنا كان نافذا.. كن فيكون .

كانت هيئات البنات الموجودة معنا مختلفة، لإرضاء كافة الأذواق ، الصهباء والشقراء، البدينة دون نفور،

وصاحبة الجسد النحيل، موديلات مختلفة من الفتيات لتحقيق رغبات الزبائن .

إنه نوع من العبودية مدفوعة الأجر، ولكن من يبالي.

راقصنا الشباب حتى أنهكنا، وسط عبث لا ينتهي من أيديهم، وعندما هدأت الأمور وسط سحب الحشيش، وكؤوس الخمر، طلبني أحدهم، وكان هذا الطلب بسعر مختلف عن سعر السهرة، وبالطبع قامت داليا بالاتفاق، وتحديد السعر والقواعد.

كان يريدني وحدي معه في غرفته، ووصل الإتفاق يومها لألف دولار وطار قلبي من الفرحة، وأفهمتني داليا وقتها أن كل فتاة وشطارتها، كل شيء متاح إلا أن تفقد الفتاة عذريتها، كل شيء، ولم أتردد يومها ودخلت معه.

كان سكرانا، ولم أكن أقل عنه فالمخدرات والخمور قضت على كل خوف داخلي، بل على كل شعور بكوني إنسانة.

وكان حظي جيدا معه ، فكل ما كان يهمه هو أن يفرغ شهوته، وبالفعل مارست معه كل المقدمات المعتادة، التي مارستها مع إيهاب من قبل، سواء أكانت مداعبات أو ممارسة فمية، أو كلمات فاحشة مثيرة، ولم أشعر يومها بأي شيء ، ولا كيف مرت السهرة ، ولكني كنت في النهاية في المنزل، ومعي مبلغ من المال لم أقبض على مثله من قبل وكله لي، ودون أن أفقد عذريتي.. فهي كنزي كما أفهمتني نهال، ولا يجب أن أبيعها إلا بثمن يستحق.

لم أفكر فيما حدث ولو مرة واحدة بعدها، لقد حدث وانتهى بأقل الخسائر، بل وبربح كبير أيضا، فقط انصب كل تفكيري على كيف أنفق المال، مالي الخاص، وكنت أنتظر الصباح التالي لأشتري كل ما ينقصني بعد أن منحت أمي نصف الدولارات مساهمة مني في مصروفات الماخور الذي أحيا به، أمي التي لم تتساءل لحظة عن مصدرها.

الدولارات لا تستجلب أسئلة كثيرة على كل حال.

وهنا قاطعتها بصوت دافئ مشفق، بعد أن لاحظت تأثرها وسيل الدموع الذي أغرق وجنتيها وملابسها، وأردت أن أمنحها هدنة قبل أن تعود لسرد القصة فقلت بصوت هاديء:

- لقد مررتي بمصاعب كثيرة يا ضحى في عمرك القصير هذا، لن أصدر حكمي عليك الآن لأنني لست هنا لإصدار الأحكام، فما حدث قد حدث، ولكن هل تستطيعين إخباري بأول مرة إجتاحك شعور النفور، من هذه السهرات ؟.

صمتت ضحى، وقد ظهر على وجهها بعض المعاناة، وكأنني أثرت بداخلها، ذكرى تشق عليها استعادته، وتطوعت أنا ومنحتها منديل ورقي لتجفف دموعها، قبل أن تعود لاستكمال حديثها، بعد أن أطلقت تنهيدة أحرقت صدرها، وجعلت نظرات شفقة تتسلل لعيني المتابعة وقالت :

- " بالطبع يا دكتورة سلمى، إنها أكثر ذكرى سيئة محفورة بأعماقي، إنها التجربة التي جعلتني أوقن أنه

لا شيء في هذه الحياة بلا ثمن، ولكنه كان ثمناً فادحا، ومؤلما وجعلني أوقن لحظتها أنني سأفقد الكثير.

فبعد سهرتي الأولى والتي مرت بخسائر لا تذكر، اعتدت الأمر، وكنت أقوم بكل هذه الممارسات بعد أن يخطفني الحشيش والخمر لمملكتهم، وكنت ذكية جداً في إثارة الزبائن، فلم أخض تجربة جنسية حقيقية مع أي منهم، كنت حريصة جدا، أو ربما هم من كانوا حمقى، فمازلت متمسكة بعذرية جسدي تتبعا لنصيحة نهال، رغم أن روحي فقدت عذريتها منذ زمن وبارادتي الكاملة.

في السهرة المشئومة التالية التي كنت فيها بصحبة كنزي ونهال، أعجب بي شيخ عربي ربما كان في الخمسين من عمره، ولكنه كان موفور الصحة، ويتحدث بكل صلف وعجرفة الدنيا.

كنت وقتها في الثامنة عشر من عمري ، خبرت الحياة وخبرتني، وصار المستوى الذي وصلت له مقدسا، لن أهبط عنه مهما كان الثمن .

كان سعر المرافقة والرقص والعبث الذي وضعته كنزي 1500 جنيه في الليلة، ولكن بقيامي بعمل إضافي تصل به إلى 4000 جنيه، وأنا وشطارتي كما كانت تخبرني، وكان المبلغ الإضافي مغري جدا، خاصة وأن هذا العمل يظل مزدهرا طوال الوقت، فالراغبين في التسلية والمتع المحرمة يزدادون لا يقلون أبدا.

وكان دخولي معه الغرفة هي بداية المأساة، كان شخصا سمجا، قبيح الوجه ثقيل الروح، وكان يتعامل معي بعنف وترفع وكأني خادمة، وطوال الوقت يخبرني أنه دفع ثمني واشتراني.

لم أكن يومها قد شربت ما يكفي من الخمر أو الحشيش لأنه أعجب بي وطلبني في بداية السهرة، كنت نصف واعية لأشعر بكل لحظة ألم وعنف وشذوذ مارسها معي، وعندما وطأني من الخلف، لم توقفه آلامي ولا توسلاتي، ولا بكائي ولا رجائي، فقط كان يتعامل معي وكأنني إناء يفرغ فيه شهوته.

وما أبشع آنية الصديد كما كان يقول نزار قباني .

ظل هذا الوحش يعتدي علي، ويهينني دون رأفة لساعة كاملة كادت روحي أن تزهق فيها.

إنني الإناء الذي دفع ثمن ملئه مقدما، ولم يأبه بكون حجمه الضخم غير مناسب لفتاة نحيله مثلي، فانتهكني عدة مرات، ومزق أحشائي من الداخل، لقد غادرت روحي جسدي يومها عدة مرات، وكرهته وكرهت نفسي وكرهت النقود لأول مرة في حياتي.

وعدت هذه المرة إلى المنزل، وقد عشت، أبشع تجاربي في عمري القصير.

ثلاثة أيام أستخدم كريم شرجي مسكن أحضرته لي داليا، دون أن يتم بيننا أي حوار، فقط نظرة الهزيمة كانت مرسومة على وجوهنا، ولحظتها عرفت ما كانت تعانيه داليا وما كانت تخفيه عني، وسر أنينها وألامها وسبابها أثناء نومها.

وبعد مرور أسبوع بدون نوم تقريبا، لا أتناول فيه إلا أقل القليل من الطعام لأظل على قيد الحياة، تحسنت

دودة الكتب حصرية

صحتي واستعدت عافيتي وانطلقت لأبعثر المبلغ الكبير الذي حصلت عليه دون أن أتذكر الثمن المؤلم الذي دفعته.

ومع ما أحصل عليه عبر المال الوفير، من طعام، وثياب، ومكياج وغيرها، نسيت كل معاناة مررت بها، ومر الأمر كما يمر كل شيء مؤلم وقبيح في هذه الحياة، فقط مالم يمر ببساطة هو تلك الأموال التي كانت تتلاشى، وكأنما أصابها مس.

ولأنني كنت بحاجة للمزيد منها عدت صاغرة للعمل والسهرات الماجنة.

لم أكن أدري أن الحياة كالبحر، والبحر ديدنه الغرق، لذلك غرقت فيها، دون أن يكون هناك طوق نجاة.

فقط في السهرات التالية، كنت حريصة على أن لا أبدأ في الأمر قبل أن أكون قد سكرت، وخطفني دخان الحشيش الأزرق، فالألم يكون أقل في هذه الحالة، وبرغم هذا وقعه النفسي والجسدي شنيع يا سلمى.

دودة الكتب حرامية

وفي هذه اللحظة، قمت من مكاني واحتضنتها، بعد أن علا نشيجها وحجبت دموعها الرؤية عنها، وقلت بصوت مشفق :

- هل لديك القدرة لتكملي، أم نؤجل الأمر للجلسة التالية ؟.

وبصوت دامع منكسر ومنفطر، قالت ضحى :

- "بل سأكمل حكايتي، فالآتي هو الأهم والأكثر قبحا ".

مسحت ضحى دموعها، ولكنها عادت لارتداء نظارتها السوداء، فعدت إلى مقعدي واجمة مترقبة.

ودارت الجلسة من جديد .

دودة الكتب حرامية

البحر الأعظم لا يمزح ولا يجازف بسمعته، حتى في ظل أزمة الحشيش إبان الثورة، حافظ على جودة منتجه ونقاوته، إلا إنه اضطر أن يرفع السعر، ومن يأبه بالسعر مع الأشياء الجيدة، في عالم قد خلا من أي شيء جيد .

جلسنا سويا نتبادل السيجارة المحشوة بذلك السم البني، حتى عبق دخانها الأزرق فضاء الغرفة، وكل منا منهمكة في مطالعة شاشة هاتفها، غارقة في عالمها الخاص، حياة رتيبة وأيام تمضي دون جدوى، وكأن وجودنا في هذا المنزل مجرد استراحة حتى تنتهي دورة اليوم التي لا تتغير.

تبادلنا بعض الحديث الروتيني فقلت لداليا :

- " الإرهاق يبدوا جليا على وجهك هل ستخرجين اليوم، ألا تحظين ببعض الراحة.. ليلة الأمس كانت مرهقة جدا؟".

نظرت لي داليا نظرة ذات مغزى، قبل أن تقول بصوتها الرقيق المنهك:

- "أنت تعرفين أنه لابد لي أن أخرج ، لقد أرسل لي الزفت فهمي على الواتس أب رسالة تحدد الموعد، ولن أستطيع أن أخلفه، فكما ترين الحال مصاريف البيت مثل النار تحرق النقود، و سخافات أبيك لا تنقطع، ولا أستطيع أن أغضبه مني في هذا التوقيت".

هززت رأسي متفهمة، وقلت :

- " سامحيني يا داليا ، ولكني لن أستطع أن أكمل ، إن روحي تمزقني، وجسدي يرفض أن يطيعني ، متى يتوب الله علينا من كل هذا!".

كنت في هذا الوقت قد تعرضت لأصعب موقف في حياتي من قبل أحد الزبائن، ومع فداحة ما حدث، وما تعرضت له من إذلال وإهانة وانتهاك، قررت ألا أعود لهذه المهنة الحقيرة مرة أخرى مهما كان الثمن، فأصبح كل العبء على داليا في هذه الفترة.

وبرغم كثرة الضغوط عليها، إلا أني شعرت بالفعل أن الأمر قد أراحها، فهي كانت تشعر بالذنب من أجلي، ومن اضطراري للقيام بما تقوم به، كما أن ما حدث لي في آخر مرة من عنف جسدي وإهانة، جعلها تشفق علي كثيرا، وعلى صغر سني.

أنهيت عبارتي، فأقبلت علي وأحتضنتني وقالت:

- "لا عليك يا حبيبتي، لا عليك، ما لا تستطيعين القيام به اعتدته أنا، لا تحملي نفسك أكثر مما تستطيع، أنا هنا ومن أجلك".

ضممتها في قوة، وقلت بصوت يائس :

- "إن شاء الله ستتبدل كل الأمور ..لن يرضى الله أن نظل في هذا المستنقع القذر إلى الأبد".

قبلتني داليا ثم ضمتني إلى صدرها ضمة أخيرة، وكأنها تحاول أن تستمد مني بعض الأمان، قبل أن تقول :

- "هل ثيابك الداخلية السوداء نظيفة، إن فهمي يريد أن يراني بمثلها.. هذا الحقير الذي لا يدفع يتشرط أيضا".

وفهمي هو القواد الذي يتولى أمر أعمال داليا وحمايتها في غياب نهال وكنزي الذي كان يمتد لشهور، لا تملك فيها داليا رفاهية التوقف عن العمل.

وهو شخص شهواني، يعمل على استغلال كل الفتيات اللاتي يعملن تحت يديه لنزواته الخاصة، والويل كل الويل لمن ترفض أو تعترض.

ضرب، وإهانة، والبعض يقول أنها وصلت للقتل، ولكن لا دليل على حدوثه إلا اختفاء ماجدة وسهير وغادة، وهن عاهرات وهروبهن غير مستبعد.

هززت رأسي في إيجاب، ثم تركتها وعدت لتدخين سيجارة الحشيش التالية، وعيناي لم تغادران شقيقتي التي بدأت في ارتداء ثيابها والتزين، حتى أصبحت كحورية جميلة، تنتظر فهمي ليلتهما.

غادرت داليا الغرفة في حين جلست أنا مع أفكاري، ولا أعرف لماذا سطعت في رأسي تلك الحادثة المشئومةالتي مررت بها منذ وقت قصير، التي كانت نقطة التحول في حياتي.

تلك الذكرى كانت أحد أكبر دوافعي للقدوم إليك يا سلمى، بل هي السبب الرئيسي، وقبل أن أخوض فيها اسمحي لي أن أسألك عن مدى حفظك للأسرار، لأن القادم مخيف، ولا يتقبله الشخص العادي.

قالتها ثم خلعت نظاراتها السوداء، لتواجهني للمرة الأولى، وعقلي يشتعل بالتساؤلات، فلو أنها لا تعتبر كل ما فات لا يدخل تحت بند الأسرار على الرغم من فداحتها، فالقادم سيكون شيء خارج التوقعات.

وهو يحتاج مني أن أطمئنها بشكل عملي، لذا قررت أن أنقل جلستنا للأريكة كعادتي، وطلبت لنا ليمونا ليهديء أعصابنا ثم قلت:

- "كل الأطباء يقسمون على حفظ أسرار مرضاهم.. وأنا للمرة الثانية أقسم أمامك أنه مهما كانت طبيعة هذا السر فإنه مصان، عليك أن تثقي بي وللمرة الثانية أخبرك أني هنا من أجلك".

عادت ترتدي نظارتها، التي تتخفى خلفها، ثم ارتشفت نصف كوب الليمون على جرعة واحدة، وقالت:

- "كانت سهرة خاصة جدا لزبون واحد، وكان طلبه فتاة عذراء، وكنت وقتها مازلت محتفظة بعذريتي كما أخبرتك، والثمن خمسة آلاف دولار أحصل منها على ثلاثة، كان مبلغا فادحا بالنسبة لي مع أسعار الدولار التي ارتفعت بشكل جنوني.

خاصة وأنني كنت مفلسة وضاق ذراع فهمي بكوني أعمل معه بشروط، حتى أنه قلل الطلب علي عامدا ليجبرني على التنازل عن عذريتي، ولكني كنت عنيدة بشكل كبير، وأبحث عن الثمن المرضي، وعندما صارحتني داليا بالأمر بعد أن طلب منها فهمي إخباري،

لم أتردد، لقد تم انتهاك كل شيء في، فما لدي لأخسره أكثر.

وبالفعل ذهبت إلى هذا الزبون، كنت أتوقع شيخ عربي كبير، أو عجوز مصري مفتون بالعذراوات، ولكنه كان شابا وسيما راقيا، عاملني كإنسانة حقيقية.

وكان يخبرني طوال الوقت أنني أجمل وأنقى وأرقى مما أتخيله عن نفسي، حتى أنني قصصت عليه حكايتي دون تردد، فأخبرني أني زهرة رقيقة بقلب مستنقع، والظروف أحاطتني بعواصفها، ولكنها من الداخل ظلت على طهرها وعفتها.

وعندما أخبرته أنني قمت بكل شيء بارادتي. احتواني بكلماته، واهتمامه، ورؤيته البعيدة لما أعجز أنا عن رؤيته في نفسي.

ولا أعرف كيف جعلني أخبره بمكنون نفسي، ومخاوفي وطموحاتي وأحلامي، كيف جعلني أنا نفسي أرغب في منح نفسي إليه.

ولكنه في المرة الأولى رفض الأمر، برغم الثمن الفادح الذي دفعه لي، ومنحني مبلغا آخر وطلب أن أزوره بعد أسبوع.

وطوال هذا الأسبوع لم أفكر إلا به، وللمرة الأولى أشعر بقلبي يخفق بمثل هذه القوة، وفي كل تفاصيل يومي لم يكن إلا علاء الوسيم المهذب الراقي، وهذا هو اسمه بالطبع.

وعندما أتى الموعد الذي أنتظره على أحر من الجمر، ارتديت ثيابي هذه المرة، وتهيأت كعروس في ليلة زفافها، وخرجت من المنزل، وأنا ألقي نظرة ازدراء على أبي الذي لم يأبه بوجودي من عدمه، وسط انهماكه في تناول الخمر.

كنت أشعر نحوه بنفور ولكنه لم يصل للكراهية بعد ، وإن كنت أعتقد أنه سيصل إليه في يوم ما، وكم كنت أتمنى أن أخبره بأنني ذاهبة لرجل آخر ليفقدني عذريتي، ويلوث شرفه، ولكنه متى كان لديه شرف

ليفرق معه الأمر، أعتقد أنه لو عرف لحثني على أن أطلب مبلغا أكبر.

وعندما أغلقت باب الشقة خلفي، نسيته، ونسيت كل شيء، ولم أتذكر إلا علاء بجاذبيته وحديثه الذي يهزني من أعمق أعماقي.

وفي الخارج وأثناء انتظاري لسيارة أوبر التي ستقلني إلى مكان حبيبي كان قلبي ينبض بقوة، وصدري يعلو وينخفض مع شدة إثارتي وشوقي إليه.

نعم كل شيء في كياني كان يعتبره حبيبي، كان أول من أحببت ورغبت في حياتي برغم قصر الوقت الذي عرفته فيه.

وطوال الطريق كان ينبض قلبي بعنف، إنها المرة الأولى التي أرغب في رجل بمثل هذه القوة، والمرة الأولى التي أنا مستعدة فيها أن أدفع له ليفض بكارتي، ويريق دماء عذريتي.

لقد سحرني بشكل لم أتخيل أن يحدث لي قط.

كان خبيرا في معاملة النساء واكتساب ثقتهن، بل ومحبتهن في وقت قياسي.

كان يقرأني ويعاملني ككتاب مفتوح، لدرجة أنه أشبع كل أحاسيسي في وقت قصير.

وعندما وصلت لباب شقته، وهممت بضغط الجرس، لاحظت أنه مفتوح فدخلت، فوجدته يستقبلني بلهفة، ويضمني إلى صدره بشوق، ويقبل وجنتي في شغف، قبل أن يسحبني إلى الأريكة، وينظر في عيني ويقول:

- " أنت ملاك يا ضحى".

نظرت لعينيه مباشرة، وقلبي يخفق بقوة، وسألته وأنا أحاول أن أصدق ما يصفني به، وهو الذي أحضرني إلى هنا بأمواله وقلت:

- "هل تراني حقاً ملاك يا علاء؟".

نظر في عيني ثم منحني قبلة طويلة، زلزلت أعماقي، قبل أن يقول الجملة التي تشربتها، وتعطرت بها روحي

وانحفرت في أعماقي:

- "نعم يا ضحى أنتِ ملاك حقيقي، بل زهرة جميلة، عطرت كوني وحياتي".

وبرغم فرحتي تذكرت حديث فهمي لي في أول لقاء جمعني به مع داليا:

- "أنتن هنا للعمل.. والعمل فقط.. لا شيء يتم دون علمي.. الزبائن كلهم ذئاب، لا تسقط إحداكن في غرام زبونها، لأنه لن يراها يوما فتاة أحلام.. إنه يدفع ويأخذ مقابل ما يدفعه.. ومن يدفع الحب مقابل الجنس.. هو شخص يرى نقوده أهم من العاهرة التي ينام معها.. ويخدعها بحلو حديثه.. أنتن عاهرات لا تنسين هذا وتصبحن حمقاوات أيضا".

وعلاء أنساني نفسي، بل أنساني الدنيا كلها.

هو زبون بالفعل، لكنه يدفع أموال ومشاعر وتقدير، علاء يشذ عن هذه القاعدة، قلبي يخبرني بهذا.

وبالفعل قضيت مع علاء وقت حميم في شرفة منزله المطلة على النيل، وتحدثنا في كل شيء، وفعلنا يومها كل شيء إلا الجنس، وبرغم أن جسدي كان يتحرق إليه شوقا، إلا أنني كنت منتشية بالسعادة التي لم أشعر بها إلا في وجوده.

وقبل أن أغادر شقته منحني بعض المال، حاولت أن أرفضه ولكنه أصر، ثم قبلني على وجنتي وضمني إليه وأخبرني أن أعود بعد شهر لأن لديه عمل هام، سيجبره على قضاء بعض الوقت في بروكسل.

في هذا الوقت كنت قد توقفت عن العمل للمرة الأولى، بعد المعاملة السيئة التي عاملني بها أحد الزبائن، بعد أن قيدني ومارس علي ساديته، وكاد أن يفقدني عذريتي التي أحتفظ بها لعلاء.

أحببت علاء كثيرا، وأرهقني انتظاره، فلم يكن بيننا وسيلة تواصل مباشرة، ولهذا لم أستطع أن أتواصل معه طوال هذا الشهر، حتى كادت روحي أن تفارقني وتذهب إليه.

إلى أن جاء الموعد، وتزينت كما لم أتزين من قبل، وذهبت إليه..

والغريب أن كل ما كان يشغل تفكيري في حينها، هو شيء واحد فقط، أن أحصل عليه، أن أملكه نفسي، أن يكون الحب هو فقط ثمن فض بكارتي.

لم يأت الزواج أو الارتباط في رأسي ولو مرة واحدة، لقد استطاع أن يجعلني أسيرته، وسيطر علي كما لم يحدث لي من قبل.

وعندما فتح لي باب الشقة هذه المرة، لم يكن وحده، بل كان بصحبته كلب أسود عملاق جعلني أتراجع إلى الخلف، فصاح به فاستكان في مكانه، وهو يضحك في قوة قائلا:

- "حبيبتي تخشى الكلاب؟".

في موقف آخر كان يمكن أن أستفيض في شرح كم أنا مصابة بالرهاب من الكلاب، ولكن كل ما عناني في هذه اللحظة، قوله كلمة " حبيبتي".

زلزلتني الكلمة..

بل سرقتني من نفسي وكل شيء.

وعندما دخلت إلى الصالة، أشار لي أن أدخل إلى غرفة النوم وهو يقول:

- "اليوم لا وقت للحديث فأنا أرغبك بقوة".

أدركت بيني وبين نفسي أنه يوم سعدي، ومن شدة فرحتي سبقته إلى الغرفة ونزعت كامل ثيابي، وعندما هممت بالاستلقاء في الفراش، أخبرني أنه يريدها بطريقة معقدة قليلا، نظرت له بكل افتتان، بعد أن نزع ثيابه فظهر بجسد رياضي مشدود، وقلت له بكل رغبة:

- "أنا ملكك".

وتركت له نفسي، فقيدني بقيد معدني مغطى بالريش، إلى مقعد مائل أجبرني على أن أكون منحنية إلى الأمام، وبعدها سمعته ينادي على كلبه المخيف، ويقول:

- "ركس .. إنها لك".

قالتها ثم انهمرت دموعها بشدة، ونزعت نظارتها من فوق وجهها، وقالت:

- "هل تصدقين هذا يا سلمى.. كان أول من فض بكارتي كلب، لقد أعتلى ظهري وانتهكني ، وعلاء يضحك من الشبق والاثارة".

حاولت أن أقاطعها لأهديء أعصابها، وأخرجها من تلك الذكرى البغيضة، ولكنها أكملت بغضب من بين دموعها:

- "هل تصدقين أن أول رجل أحببته في حياتي يسلمني لكلب، وأنا التي كنت أسلم له نفسي طواعية دون قيد أو شرط".

حاولت أن أقترب منها، ولكنها انتفضت ووقفت وهي تكمل بصوت مذبوح وسط دموعها:

- "وبعدها علمت من بعض زميلاتي في المهنة، أنه رجل مريض وسادي، ومارس رغباته الدنيئة هذه مع

العديدين، بعد أن أوهمهم بحبه لهم واهتمامه بهم، ليكسرهم ويحتقرهم، ولكنه طالما يدفع، فالضحايا متوفرين طوال الوقت، وهو لا يمل من لعبته هذه، ولطبيعة مهنتنا كان الأمر يمر في سلام.. ولكنه معي لم يمر بسلام!.

إنه لم ينتهك جسدي فقط، ولم يذلني فقط، بل هشم روحي، ومزق قلبي، وأراني كم أنا رخيصة.

قالتها ثم أخذت تلهث في قوة، وزاغت عيناها، ولم أنبس أنا ببنت شفه، لأنني توقعت القادم، وعندما قالته لم يكن مفاجأة لي، ولكنه كان صادما رغما عن هذا، ولأقصى حد.

اخذت تنظر نحوي، وصدرها يعلو ويهبط، ودموعها تغرق كل شيء، ثم قالت بقسوة:

- "لم يكن يستحق أقل من القتل.. إنه أكثر حقارة من الكلب الذي يستخدمه في انتهاك ضحاياه..

كنت أريده أن يدفع الثمن، دون أن أتورط معه أو مع فهمي، فالقانون لن يرحمني، وفهمي لن يرأف بي.

لذا راقبته، ورصدت تحركاته، وتحينت الفرصة المناسبة، وعندما تأكدت من كل التفاصيل، ومن قراري، استأجرت سيارة رباعية الدفع، وصدمته بها ليموت على قارعة الطريق كالكلب..

ولأنني اخترت الوقت جيدا بعد متابعتة لثلاثة أسابيع درست فيها المكان والمنطقة، ظل ملقى عدة ساعات في الشارع إلى أن وجدوه غارقا في دمائه جمجمته مسحوقة وكل عظمة في جسده مهشمة بعد أن دهسته ثلاث مرات متتالية تحت عجلات السيارة.

وبعدها ذهبت إلى مغسلة آلية في مدينة نصر قامت بغسيل السيارة، ثم ذهبت بها إلى ميكانيكي، أصلح مكان الارتطام، ثم أعدتها لمحل الإيجار دون أن يشك في أحد، ويومها شعرت براحة عظيمة، لأنني قمت بعمل أعظم وخلصت البشرية منه".

وبرغم توقعي لما فعلت، إلا أن سماعه منها صدمني بشدة، ومع ذلك تجاوزت صدمتي بسرعة، بعد أن قرأت من طريقة حديثها أن قصتها لم تنتهي فقلت:

- "لابد أن هناك لكن، فضميرك لم يؤنبك لحظة وأنت تقصين علي تفاصيل هذه الجريمة المروعة، التي أرى رغم فداحتها أن هذا الوغد يستحقها، فما السر في قدومك لي اليوم؟".

جلست قليلا لتسترد أنفاسها، ومن وسط حزنها انتزعت ابتسامة وقالت:

- "إن من دلوني عليك لم يخبروني بأنك بهذا الذكاء.. سأختصر لك القصة الآن، فأنا لست هنا لأني نادمة على قتل هذا الحيوان، ولكن لأني أستعد لقتل حيوان آخر، أساء هذه المرة لشقيقتي داليا، وأخشى أن أنجرف في الأمر فأتورط أكثر ويضيع مستقبلي".

هذه المرة كانت الصدمة مضاعفة، فلم أتوقع منها أبدا أن تقدم على تكرار شيء مماثل، إن قتل النفس

جريمة عظمي، على الرغم من أن هناك من يستحقون الموت ألف مرة، ولكننا لسنا القضاة ولا الجلاديين.

وبرغم نظراتها إلى، لم أنبس ببنت شفة.

كان الأمر أكبر مني، وأكبر من كل توقعاتي..

كان أمرا مخيفا..

ولكني لم أكن سلمى الطيبة التي تحرص على إرضاء من حولها، ولذلك وبكل فضول، طلبت منها أن تقص علي الأمر كله..

وعندما بدأت تحكي وجدت لدي قبولا هائلا للأمر.

وهذا أثار مخاوفي بشدة .

(13)

قالت ضحى بكل قرف واشمئزاز الدنيا، وعيناها تتألقان وكأنها تستعيد ذكرى تثير في عقلها الاضطراب:

- "أخبرتك من قبل بحقارة فهمي، و..".

قاطعتها على الفور متسائلة:

- "أهو فهمي من ترغبين في الخلاص منه هذه المرة؟".

لا أعرف لماذا قلت جملة (الخلاص منه) لا قتله، وهل كنت أهون عليها وطأة الأمر، أم أزينه في عينها؟.

فأجابت على الفور:

- "نعم هو ذلك الحقير.. الذي لا يقيم وزنا لأي شخص أو أي شيء في الدنيا إلا المال، و الذي لا يعرف دين ولا أخلاق ولا إنسانية، لقد اكتشفت أن هذا الحقير، لا

يعمل فقط في الدعارة ، بل يتاجر في المخدرات والمنشطات الجنسية المحظورة، والأفدح أنه همزة وصل كبيرة في إحدى شبكات تجارة الأعضاء الدولية.

وهذا الحقير كان يستقطب لعمله الشائن فتيات الشوارع، وبعد تهيئتهم لعمله الوضيع، كان يمنح لكل فتاة منهن فترة صلاحية، وبعد أن تستهلك الفتاة، ويقل الطلب عليها ويزهدها زبائن الجنس، يكون خلالها قد قام بعمل تحاليل شاملة لها.

دماء وأنسجة وأشياء معقدة لا أفهمها تماما، ويقوم ببيعها لمندوبي هذه التجارة المحرمة، الذين يعرضونها على زبانية هذه التجارة في الصين وأمريكا واسرائيل، لتحديد الصالح منها لطوابير المنتظرين لاستبدال أعضائهم التالفة من رجال الأعمال والمرضى القادرين على دفع تكلفة مثل تلك الأعضاء.

وبعدها، تختفي الضحية تماما، ويقال أنها هربت أو قام بطردها، وتنتهي بين يدي جزارين يقومون، باستخدامها كقطع غيار بشرية، دون رحمة أو شفقة.

وعندما كان يتساءل البعض منا عن أهمية هذه التحاليل والعينات التي تؤخذ منهن، كان يخبرهن أنه يعمل مع علية القوم في بلدان مختلفة، ولابد أن يكون العاملات عنده خاليات من الأمراض الجنسية والمعدية، إنه لن يضحي بسمعته الوضيعة، وكن يصدقنه.

أنا نفسي قمت بهذه التحاليل والفحوصات المريبة دون أن أن أشك في أي شيء، فعلى كل حال كنت أطمئن منها على صحتي وخلوي من الأمراض، رغم أن هذا الوغد كان يجبرنا على دفع جزء من تكلفة هذه الفحوصات فجشعه وطمعه لا يتوقفان عند حد.

وما كان يضايقني فيها أننا كنا نساق إليها كالنعاج، وكانت هذه الطريقة تعمق بأعماقي شعور كريه بأنني مجرد سلعة أو ماشية، وأن هذه الفحوصات للاطمئنان على أن ماشيتهم مازالت صالحة لتدر الأموال، كما كان يحدث قديما في مستشفي الحوض المرصود بالدرب الأحمر، حيث كانت تذهب العاهرات المرخصات من

الحكومة للكشف عليهن تفاديا للأمراض الجنسية أو المعدية.

فمهنتنا كانت قانونية ومرخصة في وقت ما، وكانت تحت عين وبصر الحكومة، وأعتقد أنك تعلمين هذا".

كنت أعلم أنها تستطرد في سرد كل تلك الأحاديث الفرعية من أجل أن تدرس ردات أفعالي على حديثها السابق، كما أدرس ردات أفعالها، وأحصي عليها أنفاسها.. بعد أن ظهرت خطورتها أمامي، وأكثر ما تخشاه في هذه اللحظة هو السقوط نتيجة جريمتها، ودفعها الثمن الباهظ، الذي لن يكون أقل من سجنها وضياع مستقبلها كما قالت.

ففي أعماقها لم تكن ممارستها للدعارة إلا وسيلة لجمع المال، ستنتهي في لحظة ما، بعد أن تؤمن لنفسها القدر الكافي من المال الذي سيجعلها تحيا حياة مختلفة، حياة ترسمها في عقلها وتسعى إليها ودفعت ثمنها من عفتها وكرامتها بارادة كاملة.

كنت قد شخصت مرضها بأنها تعاني اضطرابا اكتئابيا متأخرا، فبرغم أنها كانت مؤمنة بأعماقها أنها قد انتقمت لنفسها وأن لديها حق في ذلك، إلا أنها كانت تكره نفسها لأنها بدأت برغبتها كل ما قادها إليه، إنها تفتقد لاحترام نفسها وتقدير ذاتها، وتشعر أنها بلا قيمة.

إنها برغم أنها تتعايش مع جريمتها الأولى، ولكنها ترى نفسها مجبرة على جريمة أخرى، الدافع لها هو شقيقتها، وبرغم تعلقها بها، وما تحمله لها من حب، إلا أنها لا تراه دافعا حقيقيا ويستحق أن تضحي بمستقبلها، أو بالحياة التي تخطط لها، فالثأر لم يكن هدفا مباشرا لها!

عندما قتلت علاء كانت تعميها الرغبة في الانتقام ممن تجاوز معها كل حدود الإهانة المقبولة.

ولكنها برغم ما تحاول إظهاره من قوة ولا مبالاة، إلا أنها من داخلها في قمة الهلع مما قد تكون مجبرة على القيام به، وحضورها لي كان هدفه شيء واحد..

أن أمنعها عن المزيد من التورط في ممارسة العنف، وعن تلطيخ يدها بدماء شخص آخر.

إنها تقاتل للحفاظ على ما تبقى منها.

لقد تعايشت مع جريمتها الأولى، ولا أعتقد أنها قادرة على التعايش مع جريمة جديدة.

إن الهالات السوداء التي تظلل أسفل عينيها تدل على أنها مصابة بأرق شديد، كما أن طريقة استخدامها لنظارتها السوداء تدل على نوبات متتالية من القلق والرغبة في التواري والاختفاء، والهرب، والخوف من مواجهة نفسها.

إن من هم مصابون بمثل مرضها، ينتهي بهم الأمر عادة في كثير من الأحيان إلى الانتحار، وهي نهاية مشئومة ومتوقعة لمن هو مثلها، لو لم تتلق مساعدة سريعة.

فهي ليست بالقوة التي تدعيها، إنها أهش مما تحاول إظهاره أو تصديره لي أو لمن حولها.

إن تعاستها جلية، ولكنها ما زالت تسيطر وتتحكم لا شعوريا في ذلك الوحش القابع في داخلها، وإن كان ينتظر فقط لحظة ضعف ليدمرها ويدمر من حولها.

لقد أتت للمكان الصحيح ولكن في التوقيت الخطأ، وللشخص الخطأ للأسف، فنفس الوحش الذي يكمن في أعماقها ويسعى للانتقام بضراوة، يسكن أعماقي.

وإن كانت هي تحمل ملامح بريئة، تخفي كونها عاهرة وقاتلة، فأنا أرى نفسي أصبحت أشبهها إلى حد كبير، فالعهر ليس فقط في ممارسة الدعارة والمتاجرة بالجسد، بل في تجاوز الحدود الأخلاقية وكسرها، وعدم التقيد بالجانب الإنساني الفطري الذي جبلنا عليه.

هي فقط استطاعت أن تحقق انتقامها بشكل مباشر، وأنا عاقبت به من يشبهون من خذلني بشكل غير مباشر، وتسببت في موت روان، وتدمير حياة جايدا وأسرتها.

جايدا التي دفعتها عن عمد صوب الهاوية، بعد أن واجهتها بحقيقة ضعفها واستسلامها، في أكثر لحظاتها هشاشة.

جايدا التي أرسلت لي رسالة تدعو علي فيها بالخراب وعدم الراحة، لأنني قدتها إلى طريق آخر، لم تكن مهيأة لخوضه.

جايدا التي طلبت المساعدة مني، ووجدتني سوط عذاب يجلدها ويعري أمامها مساوئها.

تلك الرسالة مازلت أذكرها رغم أنني قرأتها منذ أكثر من أسبوعين، والتي على الرغم مما تحمله من خراب ودمار تسببت فيه لأسرة كاملة، لم أتعاط معها بشكل سوي، ولم تخرجني من غيي.

فوقتها كانت جايدا أمامي متهمة بعدم الرضا والقناعة، بكونها تبطرت وتمردت على حياة لم أستطع أنا نفسي أن أحوذها، برغم قتالي للمحافظة عليها.

أخبرتني جايد في في رسالتها المفجعة، أنها هذه المرة لم تستسلم، سواءً لي أو للظروف، وأنها قررت بعد لقاء أحمد في اليوم التالي، أن تختار الأفضل لنفسها، فهي لن تعيش مرتين، فطلبت الطلاق من عمر، وخاضت حربا مع أهلها، كانت نتيجتها أن تخلى الجميع عنها، وتخلت هي عن كل حقوقها لدى عمر، حتى ابنتها نور، واختارت أن تسير في طريق الجنون والسعادة التي يعدها بها أحمد.

أحمد الذي أصر على أن يصنع لها عرسا أسطوريا لم تكن تحلم به، وأنفق فيه ببذخ، وزينت صورهما معا عدة صحف ومجلات، وكأنه كان يريد للعالم، ولأهلها أن يعلموا أنهم أخطأوا عندما رفضوه ذات يوم لمستواه الاجتماعي، ولضيق ذات اليد.

وإمعانا في الفخر والتباهي، أخذها وسافرا معا لقضاء أسبوع عسل في جزر المالديف، ووعدها بأن يجعل بين يديها كل سعادة الدنيا.

وبرغم أن بعد ابنتها نور عنها كان يمزقها، ويسحب من رصيد سعادتها، إلا أنها انبهرت بكل ما يفعله من أجلها أحمد كما كانت تعتقد، بل وسكرت من السعادة معه، واطمأنت للأيام الغادرة، وتماهت مع اختيارها، الذي ضحت فيه بكل شيء، من أجل أن تثبت لي ولنفسها، أنها قادرة على الوقوف ضد الظروف والعالم من أجل اختيارها، مهما كانت تبعاته.

بل وأغمضت عينيها عن هفوات أحمد معها، وتوسعت أمنياتها، فحلمت بأن تستمر السعادة إلى الأبد، منكرة بأعماقها أنها ليست سعادة كاملة، وغفلت عن أن الحزن كان يتوارى قريبا منها ويتربص بها، ليخبرها أن ثمن الركض خلف حلم بني على تعاسة الآخرين، هو تحوله إلى كابوس رهيب.

فخلال وقت قصير انقلبت حياتها، بشكل صادم لم تتوقعه، جعلها تستفيق على صفعة مدوية من القدر، هدمت قصور سعادتها، وأرتها كم كانت خاطئة عندما قاتلت في معركة خاسرة، كل نصر فيها كان هزيمة.

وجعلتها تراجع نفسها، وكل ما مرت به منذ وصلتها رسالة أحمد، لتعرف أن صديقتها ندى كانت على حق، وأنني من دفعتها إلى طريق الباطل، وإن كانت هي أخطأت في اختيارها، فإنني أحمل كامل الذنب، لأنها عندما لجأت إلي طلبا للنصيحة والدعم خذلتها.

بل وأظهرتها أمام نفسها، بمظهر العاجزة أمام كل قرار مصيري حدث في حياتها، وهي التي كانت مع بعض الدعم النفسي مني ستستطيع تجاوز هذه المحنة، وربما الاقتراب أكثر من زوجها عمر الذي أحبها ولم يقصر في حقها ولو مرة واحدة.

لن أستطيع لحظة أن أنسى، تلك الرسالة الصوتية التي تفوح بالألم والدموع والضياع، التي أرسلتها لي على تطبيق الواتس أب.

تلك المحادثة التي أحفظها كدليل إدانة آخر، أدين به نفسي، مع الصحيفة التي نشرت خبر انتحار روان وتيتم أطفالها، والتي قالت فيها:

- "بعد أسبوعين بدأ أحمد يتغير بشكل جذري، وكان هذا صادما لي لأنه مبكر جدا في علاقتنا فلم يرتوي أي منا من الآخر بالشكل الذي يأتي بعده الفتور أو الملل أو الرغبة في التغيير.

كنت أعلم أن جذوة الحب لا تظل متقدة إلى الأبد بين المتزوجين، ولكنها مع الوقت والاعتياد، والشعور بالأمان والاكتفاء تصير مصباحا منيرا يقودهم في سبل الحياة المعقدة، وتساعدهم على تحمل المسئوليات والعقبات التي تواجههم.

ويتحول الحب لخلفية الحياة كما أخبرتني في جلستي السابقة معك، ولكن كان من الواضح أن أحمد قد اكتفى مني بشكل ما، أو حقق غرضا في نفسه، وبدلا من حديثه المعسول عن السعادة بقربي، أصبح طوال الوقت يحدثني عن كيف هزم الظروف وانتزعني من حياتي رغما عن أهلي وزوجي ومن حولي، وكيف أنه حقق حلمه وارتاح قلبه، وعن كم السعادة التي أصبحنا نعيشها.

كان يتحدث عن السعادة فقط، دون أن أشعر بوجودها معه، وكأنه كما أخبرتني أيضا ليس هو.

لقد تخليت عن كل شيء، وتخليت عن حياتي واستقراي وابنتي من أجل أحمد القديم، الذي لم أعد أراه مع ذلك الشخص الذي يسكن معي تحت سقف بيت واحد ويشاركني فراشي.

أحمد الذي عشت معه أجمل مشاعر صباي، بينما هذا الآخر الذي شوهته الحياة، شخص آخر لا أعرفه.

شخص كان يضعني هدفا لا حياةً كما قلتِ، ويرغب في أن يثبت للعالم كله أنه قادر على الحصول على أي شيء يريده، أو يرغبه، وأنه لم يعد ذلك الشخص الضعيف الفقير الذي رفضه أهلي ثلاث مرات.

إن ما بعد الحب، قد لا يكون حبا، إذا تحول الحب لهدف.

والآن أنا أريد أن أطلب الطلاق ولا أعرف كيف سأحيا بعدها بعد أن تشوه كل شي بداخلي، وأظلمت الدنيا

أمام عيني، حتى عمر الرجل الذي لم يسيء إلي في شيء، لن يقبل عودتي بعد أن لفظته من حياتي، وابنتي معه، لقد كانت السعادة بين يدي، وأقرب إلى من حبل الوريد، وكالعمياء أخذت أبحث عنها في المكان الخطأ.

والمفجع أني سمعت من بعض الأصدقاء المشتركين، أن أمه تسعى لتزويجه، وقريبا سيكون لابنتي زوجة أب، لا أعلم كيف ستعاملها، وهل ستترفق الحياة بها، أم سيكون لها مصير أمها، التي ستظل عارا عليها طوال حياتها.

لم أستسلم هذه المرة يا سلمي وقاتلت، ولكنني خضت حربا خاسرة، وفي النهاية خسرت كل شيء، وأكثر ما يؤلمني أني خسرت عمر، فبعد كل الحب الذي منحه لي، لم أقابله إلا بالجحود، عمر الذي كان يتفانى في حبه، دون أن يستطيع التعبير عنه، عمر أصدق حب في حياتي.

لقد طلبت مساعدتك لأعبر حيرتي وتخبطي، وكنتِ كشيطان مريد، أخرجني من الجنة، وحرمني من الراحة ما بقي لي من حياة.

الاستسلام ليس سيئا دائما ياسلمى، ولكنني أنا سيئة الحظ، ولم تكوني لي خير معين.

وعند الله تجتمع الخصوم".

كانت رسالة جايدا، لحظة تنوير عظمى، كان يمكن أن تعيدني إلى طريق الصواب، وتجعلني أتخطى محنتي النفسية، وأطلب المساعدة، كي أستعيد نفسي وحياتي، وأبدأ من جديد، ولكن كان من الواضح أنني كسلمى انتهيت، وأن عقلي قد تخدر كما تخدرت مشاعري، وأن هزائمي كسرتني فلم يعد يجدي معي أي إصلاح.

ولحظة التنوير هذه تكررت مع ضحى بشكل أكثر وضوحا.. لقد حددت طبيعة مرضها وهواجسها، ورغباتها، وأدركت مقدار هشاشتها، وأنها فقط تحتاج

ليد تستند عليها لتعبر محنتها، ولم يكن لهذا أي صدى بأعماقي المظلمة التي أغرقتني في دوامة من سوء التعاطي والإدراك.

لقد أخبرتني ضحى أنها قامت بجريمة قتل، وتخطط لأخرى، كان على هذا الأمر أن يتسبب لي في صدمة نفسية عاتية تجبرني على الاستفاقة من غيبوبتي الشخصية لأنقذها وأنقذ نفسي، ولكن كان من الواضح أني قد انسلخت عن شخصيتي الحقيقية تماما، وتقمصت دور غراب البين، وأن حالتي النفسية قد تدهورت بشكل لن يفلح معه أي علاج أو إصلاح.

فالغريب برغم أني لم أعرف مصير شقيقتها داليا، ولا ماذا فعل معها ذلك الوغد فهمي، ولكنني كنت متحمسة لدرجة كبيرة ليتلقى عقابه عن مجمل جرائمه، فللمرة الأولى منذ زمن أشعر أني قادرة على تحقيق انتقام حقيقي مباشر، برغم تداعيات انهياراتي السابقة.

كان علي أن أقود ضحى لبر الأمان، ولكني انزلقت معها إلى مستنقع الدم والضياع والظلام النفسي.

الاكتئاب مرض مخيف، وتداعياته مروعة، فهو قاتل صامت، ولكنه محترف ويجيد تدمير ضحاياه.

أنا نفسي أدركت منذ فترة وجيزة، أنني مصابة باكتئاب لا نمطي، يمنحني طاقة شر، وردود فعل عنيفة، عكس المفترض حدوثه في مثل هذه الحالة، من شعوري بالوهن، وتخاذل أطرافي، وملازمتي الفراش.

إنه اكتئاب يقودني بسرعة غير محسوسة إلى الهاوية، ويخدعني، فأرى نفسي قوية، ومازلت قادرة على مواصلة القتال، برغم حالات الانفصال الذهني، والفوضى النفسية التي كنت أمر بها بشكل متقطع.

وما أعرفه، أنه في لحظة ما ستأتي النهاية.

ومؤشرات النهاية كانت واضحة بشدة في تعاملي مع مشكلة ضحى، وتفاعلي مع حديثها.

فعندما أخبرتني ضحى، أن فهمي في الفترة الأخيرة قد انتهج سياسة جديدة بعد تزايد اختفاء العاملات عنده، وقيام الشرطة بوضعه لفترة تحت المراقبة، فقد بدأ في عرض مبالغ طائلة على عاهراته اللاتي يمكن أن يتسبب اختفائهم في المزيد من المشكلات، واللاتي تتناسب فحوصاتهم مع الطلبات الملحة القادمة من الخارج.

وكان من سوء حظ شقيقتها داليا، أن تتوافق فحوصاتها وأنسجتها، مع شخصية شديدة الثراء، لذا فإنه صارحها بالأمر، وطلب موافقتها على منحه إحدى كليتيها، مع جزء من نخاع العظام، مقابل مائة ألف دولار..

مبلغ هائل خاصة عندما تحصل عليه مرة واحدة، نقلة نوعية في حياة من يحصل عليه، مقابل كلية واحدة.

تقول ضحى:

- "لا أعرف ما مرت به داليا من تحولات نفسية عندما وضع أمامها فهمي هذا المبلغ الكبير، خاصة، وقد بدأ الطلب يقل عليها، بعد أن تم استهلاكها واستهلاك جسدها، وبدأت الأموال التي تحصل عليها تتناقص تدريجيا،على عكس مسئوليتها، وأسعار كل شيء التي صارت كالجحيم.

ربما تكون قد خشيت من عودتها لعوالم الدرجة الثانية، وزبائنها كريهي الرائحة، منعدمي الرقي والأخلاق، فالعاهرات كالراقصات والتريند اليومي على مواقع التواصل الاجتماعي، يلمعن فجأة وينطفئن فجأة، وهو ما لن تتحمل تبعاته بأي حال من الأحوال.

أو ربما لأنها باعت من قبل روحها، فهان عليها جسدها، فقررت الرضوخ، لا أعرف حقا، فأنا لو كنت مكانها لن أضحي هذه التضحية أبدا، من أجل أي شيء أو أي شخص.

فذات يوم أخبرتني بالأمر، ما يقرب من مليونين من الجنيهات، مقابل كلية وبعض نخاع العظام، أدار الأمر

رأسي ولكني أشفقت عليها، وأخبرتها، أن كل شيء يمكن تعويضه إلا الصحة، ولكنها أصرت.

لم أضغط عليها كثيرا، فمقدار المال كان يدير رأسي، وحلمت بأن يبدل هذا المقدار من المال حياتي وحياتها، والفكرة التي دارت في عقلي حينها، أنها هي من ستدفع الثمن، لقد تعلمت الأنانية في مستنقعنا المنزلي مبكرا.

وفي النهاية تم الأمر، وانتزع الأطباء ما يرغبون من جسدها في مستشفى استثماري مشبوهة، وبعدها بدأت المأساة.

فهؤلاء الأوغاد لم يخبروا شقيقتي أن كليتها الأخرى وكبدها متضرران من الإفراط في تناول الخمور، فأصابها فشل كلوي، وتلف كبدها في وقت قصير مع تراكم السموم التي عجزت كليتها عن التعامل معها، وبعد أسبوعين من الآن سيكون قد مر أربعين يوما على وفاتها، وقد وعدتها عند قبرها أنني سأنتقم لها قبل قدوم هذا اليوم".

فاضت دموعها، فاحتضنتها، وهي تقول بصوت ممزق:

- "لقد قتلوها يا سلمى، قتلوها بعد أن انتهكوا جسدها، وأنا أشعر بالعجز والضعف، وغير قادرة على الوفاء بوعدي.. ساعديني يا سلمى، ساعديني، فإني خائفة من نفسي بشكل مروع، وأشعر أنني بتخاذلي معها أشترك معهم في نفس الجريمة".

ووقتها لم أستطع أن أجيبها بشيء إلا بالدموع.

(14)

في تلك الليلة المشئومة، عشت أسود أيام حياتي، وما أصابني من كدر وغم فيها، لم أواجه مثله من قبل، كنت في مفترق طرق مخيف، وطوال الليل تتردد في عقلي جملتها الأخيرة:

- "ساعديني يا سلمى، ساعديني، فإني خائفة من نفسي بشكل مروع، وأشعر أنني بتخاذلي معها أشترك معهم في نفس الجريمة".

يومها تناولت جرعة مضاعفة من حبوب الاكتئاب والمنوم، فلم أستيقظ إلا في عصر ذلك اليوم، وقلق وخوف طاغ يتملكني، مع كآبة مضاعفة، وشعور عارم بالضياع، يصحبه ألم غير محدد عجزت عن تحديد مصدره أو منبعه يسحقني بقوة، وكأن كل خلية عصبية في جسدي تتألم بنوع مختلف من الألم، مع تشتت ذهني رهيب، فأخذت أحدق في سقف غرفتي، ودموعي لا تتوقف عن الانهمار.

إن عقلي يقاوم السقوط بضرواة، وأنا لا أساعده، وجسدي ينهار كردة فعل لتفاحل مرضي النفسي، وأنا الطبيبة التي لا تستطيع مد يد المساعدة لنفسها، أو الحيلولة دون المزيد من السقوط.

ظلال كثيفة تحيط بي، وبرد قارص يغتالني، ومن قلب الظلال وجدت صورة عاصم تتجسد أمامي..

أمد لها يدي المهتزة في ضراعة..

أنتظر أن ينتشلني من ضياعي، ولا شيء يدوي في عقلي غير كلمته الأخيرة:

- "أنت طالق".

أصرخ في طيفه دون أن يغادر صوتي حلقي:

- "لقد قتلتني يا عاصم بعد أن أحببتك.. قتلتني وقتلت كل شيء صالح بأعماقي دون رحمة، إنك أناني أناني ياعاصم"..

بعدها تجسدت أمامي صورة زياد، فصرخت فيها:

- "وأنت أيها الحقير من قادني إلى كل هذا الدمار.. ليتني ما عرفتك أو أحببتك.. لا أحد منكم رآني بعد أن أحببته.. أقسم أن أنتقم منكم جميعا ومن كل من يشبهكم".

وعندما تجسدت أمامي صورتي جايدا وروان.. خرجت من حلقي صرخة مكتومة، وأنا أرى في عيونهما تلك النظرة الكارهة الآثمة، وفقدت الوعي.

داهمتني كوابيس متعددة كادت تصيبني بالجنون، الذي أقف على حافته متحفزة.

كنت أقاتل أشخاصا مشوهين.. وكلما تمكنت من أحدهم، كان يسقط على الأرض وتحمل جثته وجهي.

فكرة موتي طلبا للراحة تتعمق بوجداني أكثر.

لقد قتلت نفسي في الكابوس عشرات المرات، ورغم علمي أن من يموت في الحلم يموت في الحقيقة،

ولكنني مازلت حية أتنفس، وأطلب مزيدا من الموت لروحى المفتتة.

في المساء استفقت وفي حلقي مرارة غريبة، وعلى الرغم منها كنت أشعر بصفاءٍ ذهنيٍ غريب، لا خيالات أو ضلالات أو هلاوس، لا أشباح من الماضي ولا مشاعر سلبية ولا تشويش، ولا جثث تحمل وجهي، وأدركت ساعتها أنني أعاني من نوع متأخر من الفصام

الصوت الذي كان يحدثني طوال رحلتي، هو جانبي المظلم.

إنني أرتقي درج المرض النفسي بخطوات واثقة.

وهذه الحالة لم تكن جديدة علي، لقد واجهتها من قبل في دبي، انفصال تام عن ذاتي الحقيقية، بعد نوبات يأس متكررة، تدفعني نحو طريق واحد.. الرغبة في الخلاص..

وكأنني بالفعل تحولت لشخصيتين مختلفتين في جسد واحد، شخصية خانعة واهنة، تتابع بلا مبالاة

كاملة، وشخصية أكثر جموحا تتعامل بقسوة وشراسة مع كل شيء.

وفي هذا الوقت لم يكن يشغل بالي وفكري، إلا ضحى وفهمي، وفكرة الانتقام.

ونبتت في رأسي فكرة خبيثة، وهي أن أفضل مكان آمن تتواجد فيه، هو أن تكون بالقرب من عدوك لتكتشف نقاط ضعفه، وتتجاوز الهالة المصنوعة حوله، التي تجعله لا يقهر، وتتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليه، والإجهاز عليه.

وهي نصيحة منحتها لضحى، التي نفذتها على مضض، فهي لا تطيق رؤية هذا الوغد الذي سلب منها حياة شقيقتها.

وبرغم كراهية ضحى لفهمي، إلا أنها نفذت هذه الفكرة ببراعة، ووجدها هو نوع من الرضوخ والاستسلام فجعله غروره يقربها منه أكثر، وعاملها كحيوانه

الأليف، فهي على كل حال أحد ممتلكاته، كما أنها بارعة في الممارسات الشاذة التي يعشقها.

ظلت ضحى لصيقة به لفترة من الزمن، تتحرى أسراره ونقاط ضعفه، بحثا عن الوسيلة المثلى للخلاص منه، وروحها تكاد تفارقها من القرف والاشمئزاز، بعد أن صار عليها أن تمجد أفعاله، وتعلن تقربها منه، لدرجة أنها بدأت تشعر أنه قد وقع في غرامها.

وفي أحد لقاءاتنا شبه الدورية، أخبرتني ضحى أن فهمي عندما يتناول الخمر ويسكر، يفقد كل كبريائه، ويتحول إلى طفل، ويصير أقل حدة على عكس تفاعل الآخرين مع الخمر.

ومن دراستي أنا لكل ما أخبرتني عنه من معلومات، أدركت أن بأعماقه نوع من الشخصيات المزدوجة شديدة التعقيد، فكل قاتل او سفاح أو مغتصب لديه جانب آخر من شخصيته يخفيه بأعماقه، وهو يظهر عند فهمي بمجرد تناوله للخمر، لدرجة أنها في بعض

الأحيان رأته كإنسان لا فهمي الذي يعامل كل من حوله كنصف إله بكل جبروت.

كما أنها أخبرتني أنها متأكدة من أنه بأعماقه، يخفي نوعا من الحزن المرير أو الألم، وكأن لديه شخص في ماضيه يفتقده، أو يفتقد تأثيره عليه، كما أنه يكره أباه بشدة، وتعتقد أنه السبب الرئيس الذي أجبره على سلوك هذا الطريق، وحوله إلى شيطان زنيم.

لم أبال أنا بأسباب تحوله أو أن شخصيته لديها جزء يشعر بالذنب أو تأنيب الضمير، فقط ما ركزت عليه هو اطمئنانه لوجود ضحى بقربه، وأنه يتناول الخمر بشراهة، وهنا نبتت الفكرة في رأسي.

السم .. سلاح المرأة الصامت.

ولكن ليس أي سم، سم خاص قادم من الهند من شخص يدعى أكرم خان، كان صديق لي، ويعمل معي في نفس المستشفى الاستثماري الخاص الذى كنت أعمل به في دبي، أحببت فيه اعتداده بنفسه وثقته

الزائدة، وتبحره الواسع في مجال تخصصه، وهو باحث وطبيب متخصص في علاج السموم وآثارها، وكيفية علاجها، وصناعة الترياق لها.

وهذا السم الجهنمي لا يترك أثرا في الدماء، وليس له أعراضا خارجية أكثر مما تتركه ذبحة صدرية عادية، ومن خصائصه أنه يتحلل مباشرة إلى مكوناته الأولية، بعد أن يؤتي مفعوله فلا يمكن اكتشافه، أو إدانة من يستخدمه.

تعجب صديقي الهندي من تذكري لهذا النوع الخاص من السموم، ومن طلبي الملح له، لأنه بعيدا جدا عن تخصصي أو مجال عملي كطبيبة نفسية، ولكنني أخبرته أنه مساعدة لصديق مصري آخر يعد رسالته عن أنواع السموم المختلفة وتأثيرها.

وبالطبع لم يدرك وقتها أنني كنت أكذب عليه، وأن السم الذي طلبته منه، كان من أجل قتل نظيف لذلك الوغد فهمي، وبالطبع ليس للقيام بأي أبحاث عليه.

على كل حال لقداستجاب لي دون أن يعرف أنه هو من أوحى لي بهذه الفكرة القاتلة، عندما حدثني ذات يوم بعيد، عن أنواع السموم المختلفة، التي يتخصص في علاجها، وعن هذا السم المخلق تحديدا، والمستخلص من سم أحد أنواع الأفاعي الفتاكة التي تغص بها الهند، والذي يعجز أمهر الأطباء الشرعيين عن اكتشافه، وتسلمت أنا طرد السم الزعاف بالبريد السريع، مع كل الأوراق البحثية التي كتبها عنه.

بالطبع ستتساءلون أين كان عقلي، وأنا أعد بكل هذه الثقة والهدوء لهذه الجريمة..

والإجابة البسيطة أنه كان في غيبوبة، لم تكن سلمى الطيبة من تتعامل، ولكن الوحش الخبيث الذي بداخلها.

الوحش الذي لم يكن يبحث عن قصاص، أو عدالة، بل ذلك الوحش الذي يرغب في الانتقام من كل رجل أساء إلى امرأة في هذه الحياة.

والغريب أن ضحى التي قتلت من قبل بقلب بارد، كانت خائفة ومترددة أكثر مني، ولكنني دفعتها دفعا للقيام بالأمر.

بضع قطرات في كأس الخمر بعد ليلة ماجنة قضياها معا، وبعدها بعدة ساعات صعدت روح فهمي القذرة إلى بارئها، ليعاقبها بما تستحق، دون أن يترك السم أي أثر كما أخبرني أكرم.

بعدها قمت مع ضحى بجلسات مكثفة لعلاجها من آثار قيامها بهذا الأمر، وقتلها لفهمي.

فهي من أعماقها لم تكن راضية عما اقترفته يداها، والأكثر أنها لم تجد ذلك الصدى المريح الذي كانت تظن أنها ستصل إليه بتحقيق انتقامها، خاصة وأن فريد المساعد لفهمي أصبح هو من يدير عمله، وفهمي بجواره كان حملا وديعا، فحتى فكرة تخليص نفسها والفتيات من هيمنته ومخططاته القذرة لم تفلح.

فكما يقولون أن ديدن الحياة، أن يسقط دكتاتور ليعتلي عرشه دكتاتور أسوأ.

ولكن كان هذا الجانب من قصتي قد انتهى، وإن لم تنته علاقتي بضحى، وأصبحنا أصدقاء لدودين، فبيننا أسرار ودماء وفهمي.

وإن لم تنتهي قصتي هنا..

فالقدر أرسل لي ضحية جديدة بمشكلة جديدة.

وهذه المرة كنت مستعدة تماما.

أحلام

(15)

دخلت أحلام إلى غرفتي متوترة، نظراتها إلى المكان تدل على عدم راحة، تنظر نحوي بتهيب، وحذر، جسدها يرتجف رجفة أعرفها جيدا، حدقتا عيناها ضيقتان، ويبدو على ملامحها عدم التركيز، ذراعها الأيسر يرتعش رعشة خفيفة، ربما من حاجتها إلى أحد أنواع المخدرات.

إنها مدمنة دون شك، لا أحتاج لخبرتي كطبيبة نفسية لأعرف هذا، ولأعرف أنها اضطرابات نقص المخدرات في الجسد.

كانت ترتدي بلوزة فضفاضة، فوق جيب واسع طويل يغطي قدميها، وجسدها النحيل، وغطاء للرأس.. ملابس كانت أنيقة في يوم ما، وتحمل هاتفا محمولا قديم الطراز، تهيم عيناها وكأنها تهرب من أفكار عارمة تصطرع بداخل عقلها، أو أنه تأثير انسحاب المخدر الذي تتعاطاه من جسدها، فهي جالسة في الخارج منذ

ثلاث ساعات، ويبدو أنها تجاوزت موعد الجرعة المقررة.

من حديثي الأولي معها، أدركت على الفور أنها شخصية منطوية لا تشعر بالثقة ولا بالقبول الاجتماعي في أي مكان تذهب إليه، أو مع الأشخاص الجدد الذين تتعامل معهم، تعاني من مزيج من القلق والاكتئاب والشعور بالدونية، مع حزن دفين، وهم كبير يثقل كاهلها.

لم تستجب لطلبي بأن تتناول أي مشروب عرضته عليها، ولم تشعر بالحماس لكتابة مشكلتها عندما اقترحت عليها الأمر، فطلبت منها أن تتحدث عن حياتها ومشكلتها، فارتسمت على وجهها علامات الحيرة قبل أن تتحدث بطريقة بطيئة تميز المدمنين، أكدت لي شكوكي وقالت:

- "أنا أحلام، ربة منزل تخرجت من إحدى جامعات الأقاليم بتقدير جيد، لم تكن الشهادة غاية في حد ذاتها، فالتعليم هو فعل نقوم به بالقصور الذاتي،

فالحياة باختصار لدينا نحن أهل الأقاليم مجرد لحظات تقع ما بين الولادة فالزواج فالموت، لا طموحات، ولا أحلام.

نحن نسخة مكررة من الأم التي تفني نفسها في المنزل من أجل الآخرين ، وهي خارج كل دوائر الاهتمام أو التطور.

شمعة تحترق بلا أمل من أجل عرف قرر لها كيف تمضي حياتها كفرد هامشي، لا كجزء فاعل ومهم ومؤثر في الحياة.

لا هوايات، لا طموح، لا فعل أو انجاز مؤثر يجعل للحياة معنى أو طعم أو هدف.

فقط أقضي الثلث الأول من حياتي في انتظار الزوج، والثلثين الباقيين في احتمال سخافاته، وسط هالة من القيود والمنغصات التي ترعرت عليها.

أنا لا أرى نفسي خارج إطار أمي التي تذوي طوال الوقت"..

تابعت تشنجاتها الجسدية الخفيفة في محاولة لتحديد أي مراحل الإدمان قد وصلت إليها، وقد أشعرتني طريقتها في الحديث ببعض التوتر والضيق، فبطء الحديث يجعل له وقع أكثر تأثيرا على المستمع، وفي هذه اللحظة كانت تقول بنفس الطريقة:

- "عندما دخلت الجامعة كنت منبهرة بكل ما حولي من مظاهر صارخة تختلف كل الاختلاف، عما عهدته في بلدتي الريفية، وعندما وقع بصري على هيثم، وهو شاب أنيق ووسيم ومثقف وثري، ويمتلك سيارة موديل العام، وفي نفس الوقت يتعامل مع المحيطين به ببساطة محببة تجذب الجميع له، تبدلت حياتي بالكامل.

بل التعبير السليم، أنها انقلبت رأسا على عقب، فأصبحت أكثر اهتماما بثيابي، بلهجتي، وبحركاتي، بل وبكل تفصيلة منها، وكأنني أنسلخ عن ذاتي لأصير فتاة أخرى بعد أن أحببت.

وكان هذا الأمر تحولا كبيرا بالنسبة لي، ولكنه لم يكن تحولا فعليا، مجرد تعديل في الهيئة الخارجية، وتماشي مع الوسط الذي أرغب في دخوله، والظفر من خلاله بفارس أحلامي، بينما شخصيتي الأصلية باقية.. تتحكم في سلوكي، وأخلاقي وطريقة تعاملي مع من حولي.

وكان التحول الحقيقي والفارق عندما تعرفت على وئام، فتاة ثرية تقضي فترة الجامعة كرحلة عابرة ستنهيها ثم تعود لحياتها الصاخبة، تقربنا من بعضنا بسرعة، فهي كانت تبحث عن تابع مطيع لها، يجعلها تتألق بجواره، فهي لم تكن بارعة الجمال، ولكنها كانت تتحايل على هذا بالمكياج والثياب الأنيقة، وكنت أنا أقوم بهذا الدور ببراعة واستسلام.

حدثتها عن عشقي لهيثم، فأخبرتني بطريقة متعجرفة أن هيثم لا يمكن أن ينظر لفتاة مثلي، وأن علي أن أحب شخصا من مستواي الاجتماعي، فالحب والجمال ليسا كافيين ليتقبلني هيثم.

كما أن هيثم ليس الملاك الذي أراه وأعتقده، ولو أعجب بي لأي سبب كان، سيكون لغرض ليس محببا في نفسه.

وبالطبع لا تنظري لحالتي الآن، ولا شكلي، بعد أن فعل بي الزمن أفاعيله، لقد كنت بارعة الجمال في ذلك الوقت.

هززت رأسي لها تأكيدا على كلامها، فأكملت:

- "هز كلامها ثقتي في نفسي إلى حد ما، ولكنني كنت قد عزمت أمري، وبرغم الفجوة الكبيرة التي بيني وبين هيثم، قررت أنه فارس أحلامي، وليس مستحيلا كما تحاول إقناعي أن يكون لي، إن جمالي هو درعي الأول.

ومن هنا بدأت مأساتي. فمجرد تعلقي بهيثم جعلها تحاول أن تعلم تابعتها القادمة من الريف الدرس بالطريقة الصعبة، على الرغم من أن هيثم قد بدأ يتعلق بي، ويجذبه ذلك الجمال الصريح، وعيناي

الملونتان، لذا فإنها أخذت الأمر كتحدٍ، رغم أنني كنت أتبع فقط مشاعري.

وكما هو متوقع، ولتقارب الثقافات والمستوى الاجتماعي، ظفرت بهيثم الذي تجاهلني بكل بساطة عندما حاصرته وئام وجذبته بخفة ظلها إلى عالمها، والحقيقة أن الحزن هو ما ظفر بي.

بدا على وجه أحلام أنها تريد الاستطراد، برغم انفعالها، واضطرابها، فقاطعتها، وصورة زياد لا تفارق مخيلتي قائلة :

- "تحديد المشكلة هو أول طريق للعلاج، أنت بالفعل على الطريق الصحيح، أكملي حكايتك ".

نظرت لي بغير فهم ثم قالت في يأس:

- "ليس هيثم هو مشكلتي الحقيقية الآن".

أومأت لها برأسي وقلت:

- "ولكنه بداية المشكلة، وإلا لما ذكرته لي".

هزت رأسها موافقة ثم قالت:

- "أفقدتني هذه الحادثة ثقتي في نفسي كثيرا، وبرغم هذا لم أستطع البعد عن وئام، وكأنها سحرتني أو أن لها تأثيرا خاصا علي، فظللت أسير في ظلها حتى السنة الثالثة لي في الجامعة.

وأه لو تعلمي مقدار ألمي ومعاناتي، وأنا أشاهد حبيبي يتبادل الهمسات وكلمات الحب والورود التي كان من المفترض أن تكون لي وحدي، مع صديقتي التي من المفترض أن تكون المقربة.

ولا وجعي في تلك المرات التي ذهبت معها كي أنتقي له هدية عيد الحب أو عيد ميلاده، فهيثم الذي لم يكن ملاكا في نظرها، قد شغفها حبا، وتعلق قلبها به، ولأنها كانت شخصية سادية من أعماقها، فإنها كانت تتلذذ بإهانتي وتعذيبي والتقليل مني أمامه، ولأنني شخصية هشة وضعيفة اتخذت موقف المتفرج،

واحتفظت بألمي لنفسي، ولكن عندما تمت خطبتهما في السنة الثالثة من الجامعة، لم أتحمل البقاء أكثر و..".

وهنا قاطعتها، وأنا أدير كلماتها في رأسي وقلت:

- "كلامك الآن متناقض مع أفعالك يا أحلام، فأنت قضيت ثلاث سنوات تتحملين فيها وئام وسخافاتها وأنت على أمل العودة لهيثم، لم يكن ارتباطك بوئام بسبب تأثيرها عليك، أو سحر خاص بها، كما حاولت أن تقنعيني أو تقنعي نفسك، ولم ينقطع أملك إلا بخطبتهما..

السؤال هنا: كيف تحملتِ كل هذا يا أحلام، ولماذا؟.

طفرت دمعة من عينيها وهي تقول:

- "كنت أحبه يا دكتورة سلمى.. كنت أحبه وأنتظر اللحظة التي قد تمل فيها منه، فيعود إلي".

ناولتها منديلا وأنا أقول لها مشفقة:

- "لقد ظلمتِ نفسك كثيرا يا أحلام، و...".

قاطعتني وهي تقول بيأس:

- "وكنت مستعدة لأن أتحمل ظلما أكثر.. فقط من أجل أن يكون من نصيبي.. لقد أحببته بحق، وهو كان يستحق من هي أفضل منها، يستحقني أنا، على الأقل كان سيجنبني البؤس الذي مررت به في حياتي".

لاحظت توترها، واضطرابها الشديدين، فأردت أن أخرجها من تلك الدوامة القاسية، وأبعدها عن تلك الذكريات المرهقة، فقلت:

- "ولكن هيثم ليس مشكلتك الآن كما أخبرتني من قبل يا أحلام.. إنها حكاية قديمة، ولا داعي لنكأ الجروح بهذا الشكل".

تمالكت أعصابها بصعوبة، وازدادت رعشة ذراعها الأيسر، فقبضت عليه بيدها اليمنى، وقالت:

- "تأثير الأمر كان ساحقا على نفسي وقلبي، فابتعدت عنهما، وقضيت سنتي الأخيرة في الجامعة أتوارى منهما، فقد كانت مجرد رؤيتهما معا بعد الارتباط تسحقني سحقا، والمؤلم أن هيثم لم يبحث عني قط بعد اختفائي من حياته، وكأنه لم يكن يراني من الأساس، وأن الأهم هو وجود وئام، وأما من حولها فمجرد مكملين للمشهد، غيابهم لا يؤثر حقيقة عليه، كما لم يؤثر وجودهم من قبل، وكانت هذه طعنة أكبر.

وقبل نهاية العام بعدة أشهر، دخل خالد حياتي..

لا أعرف كيف ولماذا؟

هو لا يشبهني في شيء.. ولا يمكن أن تتعلق فتاة مثلي بمن هو في شخصيته وسلوكه، إنه أسوأ شخص يمكن أن تقابله فتاة في مقتبل عمرها، ولكني رأيته القشة التي ستنجيني من الغرق في بحر الأحزان، فتعلقت بها.

رغم علمي أن ما جذبه إلي هو طيبتي وجمالي، وقدرته على التحكم بي، إلا أني جعلت اهتمامه بي ذريعة لقلبي، لإسكات صوت العقل، ولتجاهل نصائح صديقات الدراسة في الجامعة الذين ابتعدوا عني بسببه.

وكنت أسأل نفسي، متى أصبحت مهمة إلى هذه الدرجة كي يحاولوا إبعادي عنه، إنهم جميعا يتقمصون دور وئام ويحاولون اختطافه مني.. لقد تحول الأمر عندي لهاجس، هل تفهميني يا دكتورة".

اعتدلت في جلستي أمامها وقلت:

- "بالطبع يا أحلام، فبرغم ابتعاد وئام عن حياتك، إلا أن فعلتها الشنيعة معك حولتها لعقدة دائمة، وبتِ تربطين بها كل قرار معلق بخالد الذي لم يكن مناسبا لك بما فعلته معك.. هي ردة فعل طبيعية لشخص منطوي مثلك، ولكنه ليس ردة الفعل الصحيحة.. على كل حال أخبريني متى بدأت مشكلة خالد تتفاقم؟".

سحبت نفسا عميقا ثم قالت:

- "بعد انتهاء دراستي، وتحديدا اليوم السابع والعشرين من مايو، أذكر هذا اليوم جيدا، رغم مرور سبع سنوات عليه، ففي هذا اليوم تحديدا كان لدي موعد أنتظره بشدة مع خالد، فبرغم سلوكه السيء معي، وتجاوزاته العديدة سواء الأخلاقية أو البدنية، ولكني كنت قد تعلقت به، بل وأحببته، كان يشبه تلك الصخرة التي تلقى في مائد راكد، كان الشيء الوحيد المثير في حياتي، برغب تأثيراته السيئة، هل تفهميني يا دكتورة ؟".

هززت رأسي بمعنى تابعي، فشخص مثل خالد أجمع جميع من عرفوه أنه شخص سيء، فلا بد وأنه كان يعاملها معاملة سيئة، ويتحرش بها، فمن هو مثله لن يعرف فتاة إلا لو فاز بأنوثتها أو جزء منها على الأقل، لم يكن الأمر يحتاج لشرح أو تفكير لذا عدت أنصت لها فتابعت:

- "أذكر هذا اليوم جيدا يا دكتورة، ففيه لم أتوقف عن البكاء طوال الليل، فلم أشعر بهزيمة في حياتي مثلما شعرت بها مع خالد، ولم أشعر بقسوة الحياة إلا معه.. كانت صدمتي عاتية، وعقلي يصرخ بي طوال الليل في ألم، غير متقبل لكل ما سمحت لخالد أن يفعله بي.

إنني أتذكر لهفتي عليه، وكيف مددت له يدي، وفتحت له قلبي، وصارحته بما يدور حولي ولا يعرفه، كنت كلي أمل وأنا أخبره مباشرة بمخاوفي، بعد أن ضاقت علي الحياة بما رحبت، مع ما أقاسيه من ضغوط أصبحت لا أتحملها من أهلي، ثم سألته:

- "ماذا أفعل يا خالد.. لقد تعبت من الرفض وتقديم المبررات، لقد بدأ أهلي يشكون أنني على علاقة بشخص سري لا أخبرهم عنه، وأنت تمنعني من ذلك، وأمي لمَّحت لي أنني قد أكون وقعت في بئر الخطيئة، وخائفة من الفضيحة، لذلك أرفض كل من يتقدم لي.. لابد أن نجد حلا سريعا".

أذكر جيدا، كيف نظر لي بعين وقحة، ورده الذي نزل على رأسي كدلو من الماء البارد عندما قال:

- "ربما الحل هو أن تتزوجي هذا العريس الثري يا أحلام، أعتقد أنك تحلمين بالحياة الرغيدة، والثراء منذ زمن طويل، فأنا لن أشق الأرض لأخرج شقة، ولن أسرق لأحضر لك شبكة بعشرات الألوف، وعفش بأضعافه، أنا لم أضربك على يدك لتحبيني، ولم أعدك بتحقيق المستحيل، لا حل عندي إلا الصبر أو ...".

إنني أذكر ردة فعلي الحمقاء برغم كلماته الجارحة، وكيف كنت أتشبث بأي أمل في حديثه، عندما قاطعته متسائلة:

- "الصبر إلى متى يا خالد.. إلى متى؟ لقد أصبح عمري 29 عاما، والبعض يطلقون علي لقب عانس.. إنني في موقف صعب جدًا، وأنا أحبك".

ذبحتني نظرته اللامبالية التي صعقني بها، وهو يقول:

- "الحب لن يكفي متطلبات أهلك يا أحلام، وأنا لا أرغب في تحمل مسؤلية مماثلة في هذا التوقيت من حياتي، وأعتقد أنه لا يجب أن تضيعي هذه الفرصة من بين يديك.. فتحظين باللقب عن جدارة".

لوهلة لم أفهم، وعندما قرأ في عيني الحيرة، قال ببرود:

- "لقب عانس .. أليس هذا هو ما يخيفك؟".

ساعتها نظرت نحوه بتضرع وصدمة، وأنا غير مصدقة حديثه، وبصوتي الباكي المضطرب سألته:

- "أهذا آخر ما قادك إليه حديثي وتفكيرك يا خالد، أنني أخشى لقب عانس.. أخشى أن يفوتني قطار الزواج، ألم يأتِ في بالك مرة واحدة أنني أخشى أن يمتلكني رجل آخر.. أن يضمني غيرك.. أن أكون له جسدا وروحا، يفعل بي ما يشاء وقتما يشاء و..".

كان قاسيا فجا، وهو يقاطعني بلا رحمة قائلا:

- "وماذا في هذا أيتها البلهاء، كل من يتزوجون يفعلون هذا، ولو لم يرضكِ فأنا موجود".

هبطت كلماته الأخيرة على رأسي كالصاعقة، فارتجف جسدي، وتقطعت أنفاسي، وأنا أنظر بذهول غير مصدقة ما قاله، قبل أن أنفجر في وجهه مرددة كلماته الأخيرة:

- "لو لم يرضكِ فأنا موجود.. ماذا تظنني أيها الحقير.. أنا ابنة ناس.. رباني أهلي جيدًا، ولكني أفسدت هذه التربية بمعرفتك وحبك".

اتسعت ابتسامته الساخرة، وهو يراقبني دون أدنى اهتمام، وأنا أضع هاتفي في حقيبتي باضطراب وأحملها وأهم بمغادرة المكان وكل جزء في كياني ينتفض، ودموعي تغرق وجهي.

وفور أن تحركت جاءت طعنته القاتلة، عندما صدمني صوته، قبل أن أبتعد عن مكان جلوسه، مشيرا إلى بعض التجاوزات التي حدثت بيننا قائلا:

- "لقد أمضينا معا وقتا ممتعا.. لا تنسي هذا .. أيتها المتربية المحترمة".

تجمدت وقتها كالتمثال بعد جملته الأخيرة، وللحظات دارت بي الدنيا، وكدت أسقط على الأرض لولا أن تداركت نفسي، وهو يشير للنادل الذي سمع جملته الأخيرة أن يقترب.

منحني النادل نظرة وقحة ذات مغزى، جعلتني أهرول في سيري كاللصوص، وهو يبتسم له، ويطلب منه، أن يحضر له شيشة.

كان يتعامل مع الأمر ببرود منقطع النظير، بينما كنت أحترق ودموعي تغرق وجهي، وأنا أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني، وكل نظرات رواد المكان تتابعني في فضول، وهذا جعلني أقطع الطريق في رعونة، حتى كادت أن تدهمني فيه السيارات عدة مرات، وأنا أستعيد كلماته الجارحة:

- "لو لم يرضكِ فأنا موجود.. لقد أمضينا معا وقتا ممتعا.. لا تنسي هذا .. أيتها المتربية المحترمة".

صدمتي فيه كانت مروعة، فلم أصدق لحظة واحدة أن هذا هو خالد الذي أضعت عمري معه، وتقبلت سلوكه العنيف وتحدثه معي طوال الوقت بعدم احترام، وتجاوزاته التي أفقدتني احترامي لذاتي، وطلباته التي لا تتوقف وأرهقت ميزانيتي، وجعلتني مديونة لوقت طويل.

كنت أعتقد أن الحب هو أن تمنح وتتحمل وتضحي من أجل الطرف الآخر، ولم أسأل نفسي وقتها، ما الذي يمنحه الطرف الآخر أو يفعله من أجلي.

كم كنت حمقاء يا سلمى كم كنت حمقاء؟

كدت أن أجيبها، أننا جميعا حمقى، وضحايا لقلوبنا، ولكنها لم تكن صديقتي لأخبرها بهذا، فقلت بصوت متعاطف:

- "الحياة تجبرنا أحيانا على الخوض في طرق لا نرغبها، احمدي الله أنك كشفته قبل الزواج، فبعدها كانت ستكون مأساة".

نظرت لي بشرود، وقالت:

- "الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ولكنني كنت حمقاء بالفعل يادكتورة، فبرغم صراعي الداخلي إلا أنني وقتها عدت وفكرت، وأنا أسير بين الناس باكية، متحاشية نظراتهم المقتحمة!.

هل سيلحق بي الآن، ويعتذر عن كل شيء، ويحتويني ويكون بجواري في محنتي؟.

حماقتي جعلتني أتخيل أنه ترك كل شيء، ويسعى خلفي ليعتذر، لدرجة أنني بعد أن قطعت مسافة ليست بالطويلة استدارت لأنظر خلفي بحثا عنه، فلم أجد إلا السيارات والزحام، والحياة التي تمضي من حولي برغم أن الزمن توقف بأعماقي.

حماقتي قادتني لأن أنسى لوهلة، كل ما دار بيننا، وتلك القبضة الباردة التي كانت تعتصر قلبي وقتها، وهممت بأن أعود وأعتذر له، وأخبره أنني سأرفض العريس، وأنتظره.

وكدت بالفعل أن أعود، لولا أن تذكرت ابتسامته الشامتة، للنادل في المقهى، وكيف لم تعنيه فضيحتي، وهتك ستري.

ومن غضبي منه ومن نفسي، فكرت أن أقتص لكرامتي ، بأن أعود إليه، لأخبره أنه أكثر شخص حقير ووضيع رأيته في حياتي، وربما أهشم كوبا فوق رأسه.

وتراجعت عن فكرتي عندما تخيلته يقوم وسط الناس وينهال علي ضربا وصفعا وركلا، كما فعلها من قبل دون أن يأبه بمنظري وشكلي أمام الناس، لمجرد أني رفضت أن أزوره في بيته في المرة الأولى، وكيف أني وقتها فكرت أن ألقي بنفسي تحت عجلات أي سيارة مارة لتنهي مأساتي.

أذكر كم مرة أردت أن أجلس في ركن قصي وأبكي، ثم وجدت نفسي أبكي بالفعل، وأنني لن أستطيع الحصول على المزيد من الدموع.

أذكر تلك اللحظة التي شعرت فيها بقلبي يخفق بقوة، وأقدامي تخونني فلا تقوى على السير، وأنني كلما اقتربت من منزلي كانت أنفاسي تضيق، وكيف حاولت أن أمسح دموعي، وأستجدي بعض الهواء، وأستند لجدار قريب.. أذكر كيف هزمني الحزن والخذلان، في لحظة واحدة، فمادت بي الدنيا، وأصابني دوار عنيف، ثم أظلم كل شيء وفقدت الوعي على باب منزلي.

أذكر كيف أحاط بي الجميع بعد إفاقتي، وكيف تخلى هو عني..

أذكر خوف أمي الذي سكن عينيها، ونظرات أبي الحزينة، وقلق أخي علي، وكيف سكن في أعماقي أن الجميع يحبني، ويهتم لأمري إلا من اختاره قلبي.

إنني لم أكن أتخيل للحظة واحدة، أن تدور علي الأيام بهذا الشكل المفجع، وأنا التي منحت لخالد كل شيء بكامل رغبتي وإرادتي وبكل حب.

كل خلية من خلاياي كانت تصرخ برفض الأمر الواقع، وقلبي مازال يرفض ما حدث، ويراه مجرد كابوس، أو سحابة عابرة من الحزن ستمر من سماء أيامي، ليأتي ربيع الحب والسعادة.

لقد كسرني خالد في هذا اليوم الأسود ببردة فعله وبروده اللامتناهي، وجعلني ألوم على نفسي وأتسائل هل ضغطت على خالد حتى أوصلته لتلك اللحظة المشئومة؟

قلبي الأحمق مازال يكابر، ويبحث عن أمل أو مبرر، وعقلي يخبرني أنني عمياء، وأن حبي الأعمى له، هو الذي جعلني لا أرى ما رآه الجميع.

خالد لم يكن مناسبا لي بأي حال من الأحوال، ولم يكن لي أن أتورط مع من هو مثله، فالخبيثين ليسوا

للطيبات.

وطيبتي، وانجرافي وراء مشاعري هو الذي جعلني أخوض في هذا المستنقع الدنس، الذي لم يفقدني سنوات مهمة من عمري فقط، بل..بل.. بل أفقدني احترامي لذاتي.

إنني لم أكن مصدومة فقط، بل مجروحة ومكسورة، وأتمزق من داخلي.

ألم يكن الحب كاف، كي لا أمر بتلك التجربة المروعة.

أهذه هي نهاية الحب؟

ألم أكن أستحق أن يحارب من أجلي، أن يظهر لي أنني ذات قيمة في حياته، وأن وجودي بجواره، كاف ليتحدى العالم، ويسعى لتتويج هذا الحب بالزواج.

لقد عاملني وكأنني لا شيء.. لقد سحقني ببروده، وبالنظرة التي يراني بها.

كيف يقابل حبي بكل هذا الجحود؟

ماذا كان علي أن أفعل أكثر لأفوز بحبه واحترامه لي.

إنني لا أجد مبررا واحدا ليخذلني بهذا الشكل المؤلم؟

هل أنا السبب لأني لم أملأ عينيه كما لم أملأ عين هيثم من قبل؟

وطوال الليل جلست مستيقظة ألوم نفسي.. ليتني لم أقابله اليوم، ولم أضغط عليه، ولم أحيا لأكتشف زيف مشاعره.

لقد انحفر لقائنا الأخير هذا في كياني، فأحرق كل لحظة سعادة وأمل كنت أحيا بها..

كيف هنت عليه بهذا الشكل؟ أين الخطأ؟ أين القصور الذي قمت به فقادني إلى هذه النهاية؟

الغدر لا مبرر له.

وهو غدر بي، وخان ثقتي فيه في نفس اللحظة التي كنت أتوقع منه فيها، أن يحتويها، وأن يخبرني أنه سيحارب من أجلي.

إن ما يقتلني كلما تذكرت ما حدث أنني لذت به، فدفعني بعيدا عنه، وأراني أني لا أستحق حتى الاحترام.

كنت أتمنى لو توقفت الحياة قبل هذا اللقاء الكاشف، فعلى الأقل كنت سأذهب إلى العالم الآخر سعيدة، مفعمة بالحب، حتى ولو كان مجرد حب زائف، لشخص لا يستحق".

كنت أستمع إلى أحلام بنصف وعي، وجسدي يرتجف في قوة مع كل جملة تخبرني بها، وكل انفعال يجتاحها، وكل هزيمة تتلقاها، وقلبي تعتصره قبضة باردة.

إنها تقص علي قصة خيانة خالد لها، وكأنها تقص قصة عاصم بتفاصيل مختلفة، ولكنها تحتوي نفس الوجع

والحيرة والغدر والخذلان.

وهذا جعلني أشعر بأني أعيش نفس الموقف مجددا، وجعلني أعيش هزائمها معها، فلم أستطع مد يد العون لها في حينها، وقاطعتها بشكل غير مهني، وأخبرتها أن تعود لي في جلسة تالية، وتحججت بأن لدي موعد هام لم أذكره إلا الآن، ورأيت على وجهها نظرات الاستنكار، وهي تسألني من وسط دموعها وحزنها:

- "ألن تمنحينني نصيحة أو دواء".

تمالكت نفسي بصعوبة، وأحضرت لها بعضا من العينات المجانية من الأدوية المهدئة التي قد تفيد مدمنة مثلها، وأخبرتها أن تأخذ منها عند اللزوم، وأن الجلسة القادمة مجانية، وهذا أراحها كثيرا.

وعندما غادرتني، طلبت من تهاني أن تعتذر للحالة المتبقية، وأن تنصرف لأنني أريد بعض الخلوة، وأشعر ببعض التعب.

وفي مكتبي جلست ربما للمرة الأولى، وذهني حاضر أراجع نفسي، وما تدهور إليه حالي.

إنني أنهار، وأربط كل ما يمر بمريضاتي، بمعاناتي وما مر بي سابقا.

وأتعامل كامرأة لا كطبيبة محترفة.

إن أمانة المهنة، والقسم الذي أقسمته يجبراني على التوقف عن ممارسة هذه المهنة الحساسة في هذا التوقيت العصيب.

فاقد الشيء لا يعطيه، وأنا فقدت كل شيء حتى نفسي، بل وتركت نفسي أنجرف، فتخطيت كل الحدود الحمراء.

ولكنها كانت صحوة مؤقتة لم أحسن استغلالها، وعاد الوحش من داخلي ليسيطر، وعادت أشباحي الداخلية تحثني على التمادي.

وكان هذا يعني أني سأنتظرها في الجلسة القادمة.

(16)

وفي الجلسة التالية أتت أحلام، بدت منهكة مرهقة، تعاني من أشياء كثيرة لم تخبرني بعد عنها، وحدثتني من وسط قلقها بصوتها البطيء المثير للتوتر والضيق:

- "لن أستطع البقاء هذه المرة أكثر من نصف ساعة يا دكتورة، لدي ظروف خاصة، وقد جلست بالخارج أكثر من ساعة".

أشرت لها أن تجلس، وأنني متفهمة لظروفها، ولكنها هي التي تأتي دوما في غير موعدها، وعليها فقط أن تكمل من حيث انتهت.

احتضنت أحلام حقيبتها، وهو مؤشر مقلق، يدل على شعورها بعدم الأمان، و أنها ترغب في من يحتويها، ويربت على كتفيها، وقالت:

- "لا أعرف ما الذي دفعني لكي أتورط مرة أخرى مع شخص لا أعرفه بعد خذلان خالد لي، فبعد أن تماثلت

للشفاء أخبرت أمي أنه إرهاق العمل، وأنني موافقة على العريس الجديد الحاج حامد".

وهنا قاطعتها متسائلة:

- "وحامد هو زوجك الحالي".

هزت رأسها نافية، وهي تقول بأسى:

- "حامد هو الرجل الوحيد في حياتي الذي أره رجلا على حق، فبرغم فارق السن الكبير بيننا، ولكنه كان حنونا كريما، عشت معه أجمل ثلاثة أعوام في حياتي، فكل همه كان رضائي، فأجبرني على أن أعامله بالكثير من المودة والعطف".

نظرت لها متسائلة وقلت:

- "ولماذا لم تقولي حب؟.

نظرت نحوي في حيرة وقالت:

- "لم أشعر أنه حب، من ناحيتي على الأقل، كما أن هناك شعورا سكنني بأنني أجبرت نفسي عليه، لأهرب من خالد، خالد الذي لم يغادرني حبه تماما، كما كنت أعتقد".

هززت رأسي متفهمة، وقلت:

- "وماذا حدث بعد مرور الثلاث سنوات؟".

صمتت لبعض الوقت، وكأنها تستعيد ذكرى حائرة، وقد بدا أن إرهاقها يتضاعف، ورعشة جسدها تتزايد، فقلت لها:

- "هل توقفت عن تعاطي المخدرات يا أحلام؟".

شهقت أحلام من المفاجأة ثم تجاوزتها سريعا، وقالت:

- "كان لابد أن أفعل يا دكتورة، فإن المخدرات إن لم تقدني للجنون، ستقودني لشي أكبروأخطر، دعيني أكمل لك، وسيأتي الوقت لتعرفي كل شيء".

قلت بصوت مشجع:

- "أنا لست متعجلة على شيء، فقط سأخبرك بشيء أخير قبل أن تكملي قصتك، أنا يمكن أن أساعدك على الاقلاع بالطريقة الصحيحة، أما ما تقومين به هذا قد يؤدي لموتك، فهناك آلية طبية آمنة قادرة على مساعدتك على تخطى الأمر حتى الشفاء".

ذرفت عيناها الدموع وهي تقول:

- "الموت راحة صدقيني.. بل هو الراحة الوحيدة من الجحيم الذي أحياه.. ربك قادر على كل شيء.. المهم.. نعود لموضوعنا.. خلال الثلاث سنوات التي قضيتها مع حامد، وبرغم قدراته المحدودة على إشباعي جسديا.. إلا أنني أنجبت منه وسيم، وهناء، في عامين متتاليين،.. فلا يحتاج الأطفال لعاطفة جسدية حقيقية كي يولدوا كما يعرف الجميع.

وبعدها مرض زوجي بشدة وأصبح طريح الفراش بعد أن أصابته جلطة في المخ، تسببت في شلل لنصف

جسده الأيسر، فهو كان في عمر أبي أو أكبر قليلا، كما أنه كان شرها للتدخين والأكل غير الصحي.

ومع ظروف مرض زوجي، ومسئوليات الأطفال أدركت أنني أعيش، ولا أحيا، صحيح أنه لم يقصر في حقي منذ تزوجنا، وأن الأمومة هدف نبيل في حد ذاته، ولكن ماذا عني أنا، لقد تعبت من لعب دور الخادمة، إنني غير قادرة على كل هذا، ربما لو أحببت حامد لتحملت أكثر، ولكنه لم يكن بيدي.

ولم تطل حيرتي كثيرا، فمات حامد ذات ليلة وحيدا في غرفته بعد أن صلى صلاة العشاء ممددا على فراشه، لأعرف بعدها قيمته، وقيمة ما كان يفعله معي، بعد أن دخلت في مشاكل كثيرة كان يبعدني عنها مع إخوته، من أجل حقوقي وحقوق الأولاد والميراث.

ومن أجل أطفالي وجحود أعمامهم لم أترك مليم واحد لأي منهم، وحصلت على ميراثي كاملا، والذي أدركت بعدها أنه كان يستحق هذا القتال، نصيبي وحده جعلني من أثرياء البلدة، فما بالكم بنصيب أولادي.

وهنا قاطعتها وقلت:

- "ومتى عاد خالد للصورة؟".

نظرت لي في دهشة وقالت:

- "هل أنا كتاب مفتوح إلى هذه الدرجة ؟".

ابتسمت وأجبتها قائلة:

- "أنت وخالد كتابان مفتوحان أمامي يا أحلام، هل نسيتي أنني طبيبتك النفسية؟".

أنهيت عبارتي، ووجدت كل خلية في جسدي، تتحفز للقادم، كان يكفيني ما أخبرتني به أحلام، لأضع خالد في قائمتي السوداء، وأعتقد أن القادم سيمنحني كل مبرر لعقابه والقصاص منه.

وهنا قطع أفكاري صوت أحلام الذي بدت عليه المعاناة، وهي تقول:

- "حضر خالد بنفسه العزاء، وقرر أن يعزيني أنا شخصيا، وكانت صدمتي برؤيته، أكبر من صدمتي بموت زوجي أبو أولادي، لم أنطق يومها بكلمة، ولم آتي بأي ردة فعل، وهو يمنحني في غفلة من الناس، ورقة تحتوي على رقم هاتفه، لأتصل به إذا احتجت لأي شيء.

وطوال العزاء كنت خارج الوعي، لا أعرف هل أبكي فراق زوجي، أم ظهور خالد في حياتي، في هذا الظرف الأسود.

وكما يمضي كل شيء، مضت أيام العزاء الثقيلة، ووجدت نفسي في بيت أسرتي مع أطفالي، ولا أدري هل كان الأمر قبل الأربعين أم بعدها، ولكنني وجدت نفسي أخرج تلك الورقة التي منحها لي خالد، وأتأملها ليوم كامل، قبل أن أقوم بالاتصال به.

وكأنه كان ينتظر اتصالى، رد على الفور قبل أن تكتمل الرنة الأولى، وقال بصوت ممتليء بالوحشة والحنين:

- "أوحشتني.. أوحشتني كثيرا يا أحلام.. كيف حالك وحال الأولاد".

برغم أنني من قمت بالاتصال به، إلا أني وجدت نفسي أتحفز، وأحدثه بطريقة هجومية قائلة:

- "ماذا تريد مني يا خالد..ألا يكفيك ما أنا فيه من مصائب؟".

تحدث بنفس طريقته التي تحدث معي بها في العزاء، والتي تختلف عن شخصيته تماما، فقال بصوت هاديء متزن، لم أعتده منه:

- "أنا لا أريد لك إلا كل خير .. دوما كنت أريد لك الخير.. أنا منحتك الرقم لتتصلي بي لو احتجتني في أي شيء، فأنت الآن وحيدة، وصديق قديم يمكن أن يقدم الكثير من العون وأنت من هاتفتني.. مهما كان ما تحتاجينه، فسأنبش لك الأرض من أجله".

تلعثمت بالكلام من منطقه وقلت بغضب:

- "لا أريد أي شيء منك يا خالد.. أريدك فقط أن تبتعد عن حياتي، لم يعد بي مكان لخذلان أو جرح جديد".

قال بكل جدية:

- "لو كان هذا ما ترغبينه حقا، فاعتبريه تحقق، وكل جراحك لها علاج واحد، أعتقد أنك تعرفينه، وتعرفين أين تجديه، لأنه مهما مر الزمن، فخالد سيكون بجوارك دائما".

استفزني حديثه، فعدت لأقول بغضب:

- "لا أريد منك بالذات أي شيء.. ولا أرغب في وجودك بحياتي بأي شكل من الأشكال.. هذا هو طلبي الوحيد".

صمت للحظات ثم قال:

- "البقاء لله مرة أخرى.. في رعاية الله".

لاحظت أن يدها اليسرى بدأت تتشنج، وأن الرعشة أصبحت في جسدها كله، ولكنها كانت مصرة على مواصلة الحديث، فاستدعيت تهاني، وفي الوقت البسيط الذي قطعته تهاني كانت مازالت تتحدث:

- "وأغلق الهاتف، ولشهر كامل لم أتلق منه أي اتصال، ولم أعد أراه على المقهى الذي كان يجلس عليه.. اختفى تماما من حياتي كما طلبت، و..".

كانت تحكي بآلية، وتوقعت أنها على وشك الدخول في حالة صرعية من نقص المخدر في جسدها، فطلبت من تهاني قبل أن تعبر الباب وتدخل:

- "بسرعة يا تهاني.. في البراد حقنة مورفين، نصف سم فقط".

فهمت تهاني مغزى حديثي، في حين انحنيت أنا على جسد أحلام الذي تمدد على الأرض، وأخذ ينتفض في قوة، وبسرعة وضعت بين أسنانها قطعة من المطاط، كي لا تعض لسانها فتبتره، أو تتدهور حالتها فتبتلعه،

وأنا أفكر في المصير الشنيع الذي سيلقاه خالد على يدي، وأنا أطلب لها الإسعاف.

وكانت ليلة سوداء جديدة..

ولكنها لم تكن أسود من قلبي، وحقدي على خالد.

(17)

جميعنا نمر بأيام سيئة، ولكن هذه الأيام بالذات كانت الأسوأ على الإطلاق، كانت أمي مريضة بشكل كبير، حتى أنها كانت قد دخلت في غيبوبة سكر، لم تكن تغادرها إلا وتعود إليها، مما أجبرني على نقلها إلى المستشفى، والبقاء معها طوال الوقت، وكلي رعب وهلع، من أن تفعلها أمي وتتركني وحيدة في هذا العالم البشع.

وعندما وجدت أن حالتها تتأخر، أحضرت لها أكبر الأطباء، واستبدلت أدويتها المحلية بأخرى مستوردة أشد فاعلية، وبرغم كل جهود الأطباء، لم تكن تبشر بأي تحسن .

وفي المرة الوحيدة التي صدف أن رأيتها فيها بوعيها خلال اليومين اللذين قضتهما في المستشفى ، تحدثت معي، وابتسمت في وجهي وقالت:

- "سامحيني يا ابنتي.. لقد حلمت بأبيك وأخبرني أن لقاءنا قريب.. ولي عندك طلب وحيد، أن أموت على فراشي".

يومها صرخت في وجهها، وأخبرتها ألا تتحدث بهذه الطريقة، فابتسمت لي وقالت:

- "لا مهرب من المكتوب يا ابنتي".

وبعدها عادت إلى غيبوبتها، بعد أن أخرجت من أعماقي أكبر مخاوفي.

ومن يومها انقلب عالمي رأسا على عقب، وتدهورت حالتي الصحية والنفسية، وصرت كالممسوسة، أنا في عالم، ووعيي في عالم آخر.

كل ما أفعله في الحياة، هو النوم وعيادة أمى في المستشفى، ورؤية نظرات الأطباء المشفقة التي لم تمنحني أي أمل.

بالطبع لم أجب أمي إلى طلبها، وتركتها في المستشفى تحت الرعاية المكثفة، أي فراش يا أمي تريدين الموت فوقه، أنا لن أعيش بعدك يوما واحدا.

ومع مضي الأيام واستقرار حالتها، عدت أنا إلى عيادتي التي لم أعد أغادرها، فقد شق علي التواجد في البيت وأمي ليست فيه.

وكان من الواضح أن مرض أمي كان ضربة ثقيلة على نفسي، فقد كان كل يوم يمضي، يدفعني لأن أهوي إلى حفرة نفسية عميقة لا قرار لها، ساحبة معي كل أمل في العودة إلى طبيعتي العقلية المتزنة.

الفصام لم يحدث لشخصيتي، بل لعالمي أيضا، أدمنت الجلوس في الظلام، والقراءة عن طرق الموت المتنوعة، عن جرائم الحب وجرائم الكراهية، وكأنني أصنع لنفسي أرشيفا مظلما، وأملأ روحي بشرور العالم.

فكرة الموت لا تفارقني..

وأتحول مع الوقت إلى بؤرة تشع سلبية، وتصدر عفن نفسي لكل من يقع في محيطي.

كما أنني وجدت نفسي أقوم بوأد كل محاولة من عقلي لتجاوز هذا الظلام الكثيف الذي أصبح يحيط بي، ويوجه كل أفعالي، خاصة بعد أن أوقفت تلك الأدوية التي كنت أتعاطاها على فترات متقطعة كنوع من المقاومة لحالتي المرضية المتفاقمة.

إن تماسكي النفسي والعقلي يتدهور، ومحنة أمي تزيد من معاناتي.

لا أعرف تحديدا اليوم الذي قررت فيه زيارة أحلام في المصحة التي أودعتها فيها لعلاجها من الإدمان، بعد سقوطها في مكتبي تعاني من حالات تشنجات رهيبة تصيب المتأخرين في تعاطي المخدرات، بعد أن هاتفني طبيبها، وزف إلى خبر استجابتها للعلاج.

وعاد خالد ليحتل جزءا كبيرا من تفكيري، بل كل تفكيري، كان المتنفس الوحيد الموجود أمامي لأخرج

نحوه صديدي النفسي، وبدأت أرسم عشرات السيناريوهات للقصاص منه، كما أن عقلي أصبح يجاريني في كل أفكاري السوداء، لدرجة أنه بدأ يمارس حيل خبيثة ضدي، بتقديم مبررات لكل كارثة أفكر فيها أو أخطط لها، أو مرت بي.

ففي الآونة الأخيرة لم يعد موت روان يؤرقني،بعد أن رأيته راحة لها مما كانت تعانيه بعد خيانات زوجها المتعددة لها، وسقوط جايدا عقاب مناسب لها على الطمع وعدم رضائها بحياتها المثالية، وموت علاء مساعدة للبشرية في التخلص من آفاتها، وتلك الخطط التي أضعها لعقاب خالد، كانت جميعها تتضمن حكما بالإعدام غير قابل للاستئناف.

الشر والغدر يجب ألا يوجدا في هذا العالم، والسبيل الوحيد هو محو من يبثونهما في عالمنا، والموت أسرع طريقة لهذا المحو، وقد أثبت فاعليته من قبل.

الموت الذي يبسط جناحيه فوق فراش أمي، ويهددني بفقدانها، سأقدم له قربانا كبيرا كي يتركها.

أفكاري لم تتخط كل هذه المسائل الجنونية، وحالتي المزاجية كانت تتقلب كالفصول، ولكنها تستقر دائما عند شاطيء الانتقام.

حياتي أصبحت باردة وموحشة، وصمتي يطول لساعات وأنا أتابع جلسات علاج أحلام، وصراعها ضد المخدر، وهلعها على أطفالها الذين أصرت على أن يكونوا مع والدتها، وعن تحذيرنا من خالد، وعن المصير المظلم الذي يعده لأطفالها.

وكل ما استطعت انتزاعه منها لأفهم حقيقة ادعائها، أن خالد بعد مكالمتهم الأخيرة، لعب معها لعبة نفسية خبيثة، فأوهما أنه تغير، وظهر في حياتهاا يعرض الدعم، طالبا غفرانها لأخطائه معها، ثم اختفى وكأنه يحقق رغباتها، حرصا منه على أن تراه بشكل أفضل.

وفي خضم صراعها مع إخوة زوجها على الميراث، وشعورها بكونها وحيدة ومنهكة في دوامتها معهم، رغم وقوف عائلتها معها، ودعمهم لها، كان ما زرعه خالد في أعماقها ينمو ببطء.

ومع روتينية الصراع، وتقلباتها النفسية، والضغط العصبي الشديد الذي وقعت أسيرة له، بحثت عن دعم من نوع آخر، ليظهر خالد في حياتها مجددا بشخصيته المفتعلة، ويخطفها من نفسها وهي في أوهن حالاتها، ويقتحم حياتها بمكره ووعوده، ولسانه الخبيث، ليحصد ثمار ما زرعه مستغلا معرفته بمفاتيح شخصيتها.

كان خالد يضع أمام عينيه، ميراثها وميراث أولادها، وربما لو لم تتواجد بين يديها هذه الثروة الطائلة التي أصبحت تراها لعنة، لما منحها أي اهتمام.

لم يكن خالد متعجلا في الحصول على تلك الثروة، ووضع خطة طويلة المدى ونفذها ببراعة.

فقد عاونها في محنة الميراث، ثم بدأ يحاصرها بوجوده وحديثه، ثم يختفي لفترات تكون هي قد أشرفت على الجنون من شوقها له، ليخبرها أن ما يفعله هو تعويض لها عن إساءته السابقة لها، وأنه لا

يرغب في أي شيء منها إلا أن تكون بخير، لأن ما يحركه هو قلبه.

وبسذاجتها المعتادة اطمأنت له، وبدأت تعتمد عليه في أشياء كثيرة، وبدأ قلبها يدق من جديد بحبه.

واستمر هو في لعبته الخبيثة بإيهامها، أن هذا الحب هو مكافأته ولا يرغب في شيء أكثر، بينما كان يدفعها هو بأحاديثه ونظراته إلى حافة الرغبة.

وبخبثه وطرقه على حديد حاجتها وهو ساخن، سيطر في فترة بسيطة على كل كيانها، ولم تعد هي تتحمل فترات غيابه أو اختفائه، حتى عرضت عليه هي نفسها أمر الزواج.

نعم هي من عرضت عليه الأمر على عكس الشائع والمقبول.

وطلب هو منها أن تعيد التفكير لأنها تستحق من هو أفضل منه، لأن ظروفه لم تتغير كما حدث لسلوكه ومشاعره، ولكنها كانت مسحورة بخالد الجديد، وفي

فترة وجيزة تزوجا، وكان من الواضح في كل أفعاله أنه يحاول تعويضها عما مضى.

وإمعانا في الخداع أخبرها أنه حصل على عمل بسيط في شرم الشيخ، وأن العمل سيمنحه إجازة عشرة أيام، كل شهرين، ولم تكن هي لتتحمل غيابه كل هذه المدة بعد أن استعرت مشاعرها، وأدمنت وجوده، فبدأت هي تنفق عليه وعلى نفسها.

في البداية كانت طلباته بسيطة، ثم بدأت تتدرج في خبث، وفي هذا الوقت حول حياتها معه لجنة.

وذات يوم طلب منها مبلغا كبيرا من المال لإقامة مشروع، منحته له في شك، ولكنه عاد بعد ثلاثة أشهر ومنحها المبلغ وربح كبير جعلها تثق به تماما.

وفي لياليهم الحميمة كان لا يتوقف عن تناول الحبة الزرقاء وحبوب أخرى لا تعرفها لإرضائها، فجعلها مهوسة به وبفحولته، وبقدرته على إرضاء جسدها وروحها، ثم طلب منها أن تشاركه تعاطي تلك الحبوب،

وأخبرها أنها ستزيد من رغبتها فيه ، وتعدل من مزاجها.

كانت تثق فيه وترغب في إسعاده، ولم تتردد.

وتحولت لياليهما الحميمة إلى جلسات لتعاطي المخدرات المتنوعة التي كانت تتكفل هي وحدها بثمنها، فمن أين له بكل هذا المال الذي تتطلبه تلك المخدرات الملعونة، وهي قد ربطته بجوارها.

بعد فترة بدأ يشكو من أطفالها، وأنهم يسرقونها منه، وأنهم يفسدون عليهما لياليهما الجميلة، هو تزوجها ولم يتزوج أطفالها، ثم بدأ يهجرها، ويقلل من جرعات المخدر التي كانت تحصل عليها، حتى كادت تصاب بالجنون.

وعلى أثر هذا الأمر، قامت ولفترة من الزمن بهجر أطفالها، وتركهم لدى أمها، وكانت تقوم كل فترة بزيارتهم زيارة خاطفة، ولكن أمها لم تتحمل كثيرا

عبء أطفال في هذا السن، رغم أنها كانت تغدق عليها من أموالها، فعاد الأطفال وعادت المشاكل.

وبعودة الأطفال بدأ خطته الخبيثة معها، خاصة عندما أوشكت أموالها التي ورثتها عن زوجها على النفاد، وباعت مصاغها، وآخر قطعة أرض من ميراث زوجها الراحل، وبدأت تحثه على البحث عن عمل أو القيام بمشاريع مربحة، كمشروعه الأول لتوفير نفقاتهم المتزايدة.

وهنا بدأ يشير إلى ميراث الأطفال، والأفدح أنه بدأ يشير إلى أن عدم وجود الأطفال كان سيوفر لهما مبلغا ضخما يمكنهما من استكمال حياتهما، والحصول على المزاج.

ثم بدأ يكثف لها كمية المخدرات، وهو يبث سمومه في روحها.

ذلك الوغد الآثم كان يريد من أحلام أن تقتل صغارها، من أجل أن يستولي على أموالهم.

الحقيقة أنها ليست السابقة الأولى التي تقوم بها أم بهذا العمل البشع وتقتل أطفالها تحت إلحاح خارجي، بل قامت بها عدة أمهات من قبل، بقتل أطفالهن من أجل عشاقهن، وآخرهن تلك الأم التي أغرقت أطفالها في سطل الماء تباعا، من أجل إرضاء زوجها، وتناولت قصتها الصحف وبرامج التوك شو لفترة من الزمن.

وصحيح أن أحلام كانت مدمنة، وتمر بأزمات مادية طاحنة، وأنها صارت لا تستطيع الاستغناء عن زوجها، ولكنها لم تكن لتفرط في ظفر واحد من أبنائها، وهذا دفعها لتتوقف عن التعاطي بتلك الطريقة الجنونية، فالمتعاطي لا يمتنع عن المخدر دفعة واحدة، لأنه قد تحدث لجسدة صدمة عصبية، فيتوقف القلب، ويموت بأزمة قلبية.

وعندما انتهى تأهيلها النفسي، وعلاجها من إدمانها، ومعاصرتي لمعانتها التي لم تكن هينة بأي حال من الأحوال، كنت قد وصلت لذروة كراهيتي ومقتي لخالد ولحماقتها، وفي إحدى جلساتنا أخبرتني بخوفها من خالد، وأنه لن يتركها في حالها هي أو طفالها.

لقد كشف عن وجهه الحقيقي في الفترة الأخيرة وعاد يعاملها بعنف لتنفذ له ما يرغبه، لقد تحملت منه الكثير، ولا تعرف كيف تتقي شروره، ولا تعرف لمتى ستصمد.

وفي أحدى نوبات غضبها، وفي الليلة التي أحضرت لها أطفالها لتراهم في المصحة، قالت بثورة:

- "أقسم لك يا دكتورة أنه لولا خوفي على الأطفال لقتلته بنفسي".

وأجبتها أنا بكل ثقة واقتناع:

- "إنه لا يستحق أقل من هذا، من هو مثله لن يردعه إلا الموت".

بالطبع لم تكن أحلام بجنوني، ولا بحماستي، ولم تكن في قاع انهيارها النفسي كما أعاني، لذا فإنها اختارت الطريق الآمن، وقررت بعد شفائها التام، وخروجها من المصحة أن تخلعه، فنصحتها بصديق محامي متخصص في هذه الأمور.

ولفترة غادرت أحلام عالمي، وانشغلت أنا بمرض أمي، وباعدت بيننا الأيام، حتى عادت لي بفاجعة كبرى..

فبعد أن تركت المنزل لخالد، وذهبت لبيت أهلها، وقامت برفع قضية الخلع وربحتها، جن جنون خالد، وتعدى عليها وهي خارجة من المحكمة، لدرجة أنه أصاب أحد أطفالها بكسر في إحدى ذراعيه.

ولم يتوقف انتقامه عند هذه النقطة، فبعد أن أهانت رجولته بخلعه، تربص بها وبأطفاله، وفي ليلة حالكة، قام بخطف أطفالها، واختفى بعدها دون أن يترك أثرا، ليكسر قلبها، ولتعود له راكعة كما هددها في المحكمة.

وطوال أسبوع كامل كان من الواضح أن جهود الشرطة لن تسفر عن شيء، لجأت إلي وقتها وهي تعاني من انهيار عصبي حاد، والمشكلة أني لم أستطع مساعدتها.

وبعد عدة أيام، عثر بعض عمال النظافة على جثث الأطفال مطعون كل منهما عدة طعنات نافذة في

أنحاء متفرقة من الجسد، ومشوهي الوجه.

وانهارت أحلاما تماما.. ولم يعد في رأسها غير فكرة الانتقام، وظل خالد مختفيا بعدها، دون أن يظهر له أثر..

وفي هذا التوقيت العصيب، واجهت أنا الصدمة الأعنف في حياتي بوفاة أمي، فنسيت كل شيء عن أحلام، وغرقت في بحر مصائبي.

لم تستطع تلك الطيبة أن تصمد أمام المرض، واستجابت لنداء أبي.

ماتت بعد أن نهشها المرض، ونهشها الحزن من قبله.

تركتني آخر قشة كانت تربطني بهذا العالم، وآخر يد كانت تربت على كتفي بكل صدق.

ماتت أمي ومات معها كل شيء في حياتي

(18)

الحياة بعد أمي لم تكن مثل الحياة قبلها، على الأقل كان هناك بوجودها مرفأ أمان يمكن أن أعود إليه مهما تدهورت أحوالي ونفسيتي، والآن أصبحت وحيدة في مواجهة كل شيء.

إن أسوأ ما في الوداع، تلك البرودة التي تغزو كيانك وروحك وكونك، وكأنما كل الدفء ذهب مع من رحلوا.

تلك البرودة غزت حياتي، وغلفت كل شيء حتى قلبي، لذلك لم اتعجب من نفسي عندما لم أبكي بعد أن واريتها قبرها، ولم أنهار على الفور كما توقعت من نفسي، فقد وقر بأعماقي أن أبي سيأتي لزيارتي قريبا، وألحق بهما، وكان هذا عزاءً كبيرا.

انعزلت بعد وفاة أمي في عيادتي، ومنحت لتهاني مبلغا كبيرا من المال وأخبرتها أنه مكافأة نهاية الخدمة لأنني سأسافر خارج مصر، وقطعت صلتي بالعالم، قبل

أن تهدأ روحي، وتعود لي ذاكرتي وأتذكر أحلام ومصابها.

أثرت علي نفسيتي كثيرا حادثة اختطاف ومقتل أبناء أحلام.

الألم أبشع من أن يتم وصفه أو وصف تداعياته.

فأنا وحتى هذه اللحظة لم يكن في حياتي أمنية أكثر من الحصول على طفل واحد، طفل واحد فقط كان سينتشلني من ضياعي وانهياري النفسي، ومعه ستستقيم حياتي، وأعود إنسانة طبيعية مجددا.

لم أختبر من قبل ألم فقدان طفل، ولا ألم معرفتي أنني لن أراه مرة أخرى بعد أن رأيته يكبر أمامي، فقط أنا ملمة بشوق الأنثى لحدوثه، وألم ضياع هذا الأمل، وملمة بحالة أمي التي تعذبت معي وأصابها المرض جراء طلاقي ومعرفتها بكوني عاقرا، وكيف أنها كانت تتمزق أكثر مني.

ملمة بـكيف يعاني قلب الأم حينما يصاب فلذة كبدها ببعض الأذى، وملمة بوجع فقدان الحب والزوج والأب والأم .

ومع انهيار أحلام بت أعلم كيف ينهار هذا القلب بفقدانها لأطفالها.

أورثتني حالة أحلام، ألف هم فوق همومي، وأذكر نظرتها لي وأنا أقدم لها واجب العزاء متأخرا جدا، وهي تقول:

- "قتلهم يا دكتورة قتلهم.. قتل أولادي.. ولن أراهم أو أقبلهم مرة أخرى".

يومها انهرت بجوارها، ولم أتوقف عن البكاء لحظة واحدة، وأنا أقسم لها بيني وبين نفسي أنه سيدفع الثمن غاليا.

وقطعت الأيام التالية لا أفكر إلا في أحلام وثأرها.

والحل أتاني ذات ليلة دون أن أبحث عنه، ولكنه لم يأت وحده، بل أتاني بمصيبة، كما اعتدت أن يحدث معي خلال هذه السنوات.

ففي زيارة مفاجئة من ضحى التي أتتني منهارة ذات مساء في عيادتي التي نقلت إليها كل متعلقاتي بعد وفاة أمي، تطلب مني جرعة إضافية من السم الذي استخدمته مع فهمي، ولما سألتها عن السبب قالت:

- "ليلحق فهمي الجديد بفهمي القديم".

وعندما وجدت على وجهي ملامح عدم الفهم استطردت:

- "ذلك الوغد فريد، قد شوه وجه رباب بماء النار، ويجب أن يدفع الثمن".

سألتها على الفور:

- "ومن رباب؟".

قالت والدموع تغرق وجهها:

- "كانت فتاة منكسرة، قادمة من محافظة في شمال الدلتا، أتت إلى هنا لتبحث عن عمل وأوقعها حظها العاثر في يد زبانية فريد، وأجبروها على ممارسة الدعارة، ومن خوفها قبلت بالأمر لفترة ثم لم تستطع فهربت، فتتبعها زبانية فريد، وأحضروها مقيدة فشوه وجهها بنفسه أمامنا ليجعلها عبرة".

صمتت لتلتقط أنفاسها ثم أكملت:

- "كانت رباب صديقتي، وأنا قد تعبت، تعبت، ولابد من أن يلقى جزاءه العادل.. امنحيني هذا السم".

احتويت ثورتها، وأخبرتها أن مثل هذه الأمور لا يجب أن تتم في لحظات شعورنا بالغضب، وإلا انقلب علينا، سنرتب كل الأمور، سأحقق لك انتقامك، ولكن عليك أن تهدئي أولا.

انكمشت على نفسها في مقعدها فأخبرتها أني سأعد لها كوبا من الليمون، ولكنها طلبت مني استبداله

بقهوة، فالصداع يكاد يفتك برأسها، بعد كل ما تناولته من خمر بالأمس.

دخلت إلى مطبخ العيادة لأعدنا لنا اثنين من القهوة، وقد نبتت في عقلي فكرة، تبرر تماسكي وعدم انهياري حتى هذه اللحظة.

وهي أنني مازلت متماسكة لأنني لم أحقق رسالتي في هذه الحياة، مازال هناك فريد وخالد عليهما أن ينالا عقابهما، وبعدها ستأتي النهاية.

ومن أعماقي أدركت أنني لم يعد يسكن جسدي شخصيتان، لقد تلاشت من أعماقي تماما شخصية سلمى الساذجة الطيبة، ودعتها يوم أن أيقنت أنني لن أعود أبدا كما كنت يوم ماتت روان، وربما ظل طيفها يطاردني مع غدر عاصم، ولكنها مع موت فهمي كانت في مرحلة الاحتضار، واليوم بعد موت أمي، وموت أطفال أحلام، وتشوه رباب، ذهبت سلمى القديمة وانتهت، إلى غير رجعة.

- "سامحك الله يا أحلام، إن هذا شخص تنبئك ملامحه وحدها بحقيقة شخصيته، ما هذا البئر العفن الذي دفنتي نفسك فيه.. القلب الذي يغرم بشخص مماثل هو قلب مشوه".

فأخبرتني بصوت يائس أن قلبها تشوه منذ زمن بعيد.

منحت لضحى الصور، وكافة التفاصيل، وبعد عدة أيام أخبرتني أنها عثرت عليه يختبيء في وكر لتعاطي المخدرات أو(غرزة) كما تطلق عليها.

وفي هذا اليوم اجتمع ثلاثتنا، ولم يحضر الشيطان هذه الجلسة، لقد اكتفى برؤية ما في قلوبنا وعقولنا من خطط وسواد، وقرر أنه لن يستطيع بوسوسته أن يصل بنا لمسوى أعلى من الشر.

كانت هذه جلسة جديدة تدور في عيادتي، وربما هي الجلسة الأخيرة أيضا، وهذا ما أدركته بأعماقي، ولم أذكره لأحد.

ويومها بادرت ضحى بالحديث، رغم إرهاقها الذي لا يخفى على أحد، وحالتها النفسية السيئة، التي كان من الواضح أنها تتدهور وبشدة، مما جعلني أصف لها بعض المهدئات في لقاء سابق، وكان من الواضح أنها لا تتناولها، وربما لا تكون ابتاعتها من الأساس وقالت:

- "مكان خالد معلوم لي الآن، وهو لم يغادره منذ ثلاثة أسابيع، كما أن هناك من يراقبه كظله، لذا فهو لن يفلت من بين أيدينا، أنفقت حتى الآن سبعة وعشرون ألفا من الجنيهات، ولو أردتم الخلاص منه سأحتاج لعشرين إضافيين، و..".

وهنا قاطعتها أحلام وقالت في حدة:

- "لا يا ضحى لن يقتله أحد غيري، إنه ثأر أولادي ولن أتركه ولو على رقبتي، وبالنسبة للنفقات سأتحملها جميعا، ذلك الوغد نجح في مسعاه وحصلت على ميراث أبنائي، وبنقودهم سيدفع ثمن قتلهم غالي".

قالتها ثم انهارت، ودخلت في عاصفة من البكاء، فقبضت على يدها في حزم، وقلت:

- "هذا آخر عهدي بك للبكاء.. لن تبكي مجددا إلا بعد أن تحققين ثأرك".

ثم التفتُّ إلى ضحى، وقلت:

- "هل من تستعينين بهم، قادرين على إحضاره لنا في المكان الذي نريده؟".

هزت رأسها مؤكدة، وقالت:

- "في الموعد والمكان الذي تحددانه، إنهم لا يتورعون عن القيام بأي شيء مقابل المال".

صمتُّ قليلا لأفكر في فكرة شعت في عقلي، بعد أن قالت جملتها الأخيرة، ثم سألتها:

- "ضحى هذا النوع من الأشخاص هم أحقر فئة في الوجود، ولن يتورعون عن ابتزازك بعد إنهاء مهمتك،

فهل أمنت نفسك جيدا".

غزت وجهها ابتسامه شاحبة تلاشت على الفور وهي تقول:

- "لا تقلقي يا سلمى، أنا لست بهذه الحماقة، هناك عدة وسطاء في الأمر، وتتم كل خطوة بسرية تامة، سيبدأ وينتهي الأمر دون أن يعلم عنه أحد شيئا، أو يعلم من مول عملية الاختطاف كلها".

قلت كزعيم عصابة متمرس:

- "إذا ستقابلك أحلام مرة أخرى، لتمنحك ما تريدين من أموال، وعلينا وقتها أن نفكر في المكان المناسب لإتمام الأمر".

وهنا ردت أحلام على الفور وقالت:

- "أنا أعرف المكان جيدا، وهو مكان يليق بحثالة مثله".

وبالفعل وفي اليوم الموعود قررت أن ألتقي أحلام في مكان عام بعد أن غيرنا هيئتنا، وبعدها توجهنا إلى المكان الذي ترك فيه الرجال، خالد مكمما، ومقيدا، وكان آخر مكان ممكن أن يفكر فيه إنسان عاقل.

مكب نفايات عملاق على أحد أطراف العاصمة.

لم تنس أحلام أن نهاية أطفالها كانت في صندوق قمامة غارقين في دمائهم، وقررت أن تكون نهايته في مكان مماثل.

إنها نهاية شاعرية بالفعل، ولكن الرائحة كانت تعمينا وتكاد تزهق أرواحنا.

ذهل خالد عندما تعرف على أحلام بصعوبة، فقد كانت هيئتها مختلفة كثيرا عما عهده معها، وظهر هذا من خوفه واتساع عينيه، في النهاية بان هذا الوغد على حقيقته مجرد جبان لا يستحق شفقة أو رحمة.

كنت بصحبة أحلام خطوة بخطوة، بينما لم تحضر ضحى معنا لأنها كانت بحاجة لإثبات مكان وجودها

أثناء وقوع الجريمة، وكانت هذه احتياطات أمن مني رغبة في حماية ضحى، ولكني لم أقاوم أن أرى بنفسي نهاية خالد، وليتني لم أستمع لذلك الصوت الكريه الذي حثني على حضور هذه الواقعة التي كانت نهايتها مروعة.

كان خالد مقيدا كالذبيحة على الأرض، وقد أحكم من قاموا باختطافه وثاقه، لذلك لم يكن هناك خطر منه، ولكني أحضرت معي كحماية ساذجة سكين حاد يرقد في حقيبتي.

توقعت من أحلام أن تواجهه بجريمته ومصيره، قبل أن تقوم بقتله بنفسها، ولكنها كانت قد تخطت مرحلة الكلام إلى مرحلة الفعل.

كنت أتوقع أن تقوم أحلام بطعنه وتشويه وجهه كما فعل مع أطفالها.

ولكنها فاجأتني بما أعدته له من مصير مروع.

فبكل هدوء نظرت إلى خالد نظرة كارهة جعلت الدم يتجمد في عروقه، ثم أخرجت من حقيبتها زجاجة تحتوي على البنزين، وغمرت به وجهه وجسده، ثم نزعت كمامته، وبعدها أخرجت قداحة وأشعلتها، ووقفت تتأمله وهو يصرخ طالبا الرحمة.

وبدون أي كلمة إضافية منها، ألقت القداحة المشتعلة على ملابسه، ليصير في لحظة واحدة كتلة من اللهب، وهو يصرخ وتعيقه قيوده عن الحركة.

لم أتحمل المشهد، أو صرخاته التي تصاعدت بسرعة.

فتركتها وتوجهت صوب السيارة المستأجرة التي حضرنا بها إلى المكان، وجلست على مقعد السائق أبكي في انهيار.

ولم تعد لي أحلام إلا بعد أن تفحمت جثته، وكأنها كانت تريد أن تتأكد حتى آخر لحظة من موته، ثم ركبت بجواري، وقدت السيارة في صمت.

وأنا أرى بعيني نهاية قصة حب أخرى.

وما قد يحدث بعد الحب.

وأرى رحلتي أوشكت على النهاية.

- تعقيب الكاتب -

أخبرتكم سلمى من قبل وربما لا يذكر بعضكم، بسبب كثافة الأحداث، أن مسقط رأسها هو مدينة الأسكندرية، لذلك كانت لديها رغبة شديدة في أن يكون مكان مولدها هو مكان نهاية رحلتها.

لم تكن تؤمن أن انتحارها هو النهاية العادلة لقصتها، ولكنها آمنت دون لحظة شك منها أنها النهاية الحتمية لها، فيكفي ما أحدثته في سنوات عمرها القصير من خراب وأذى.

وما لم تدونه هي في رسالتها الأخيرة، وفي يومها الأخير تحديدا، أنها بعد زيارة سريعة إلى قبر أمها وأبيها، قد عادت إلى الأسكندرية، وودعت كل مكان أحبته في هذه المدينة الساحرة، ثم عادت لشقة العائلة الموجودة في محطة الرمل، والتي تطل إحدى

شرفاتها على البحر من زاوية ضيقة، فتوضأت وصلت لفترة طويلة، وبعدها جلست تسترجع كل ما مر في حياتها من أحداث ومواجع، وأخذت تبكي إلى أن توقفت عيناها عن ذرف الدموع رغما عنها.

ثم جلست وأمامها على طاولة السفرة حقيبة اليد التي تحتوي على زجاجة السم التي أرسلها لها صديقها الهندي أكرم خان، والتي منحت منها جرعتين لضحى، مرة لتنتقم لشقيقتها من فهمي، ومرة لتنتقم لصديقتها رباب من فريد، وقررت أن تكون هذه الجرعة الأخيرة لها وحدها.

وقبل أن تخرج الزجاجة من مكمنها، سجلت في آخر ورقة من رسالتها، جملة أخيرة.

- "الساعة الرابعة والنصف صباحا.. الآن سأذهب.. سامحوني".

وعندما فتحت الصندوق المخملي الذي وضعتها فيه، أصابتها صدمة عنيفة، فعندما تأملت الزجاجة بأعين

متسعة، لاحظت أن شكلها مختلف عن الزجاجة التي أرسلها لها أكرم، وأنه تم لفها بورقة صفراء، لا تعرف من أين جاءت.

لم تكن على دراية بخط ضحى، ولكنها كانت الوحيدة التي تملك مفتاح هذه الشقة التي قررت أن تكون فيها نهايتها، وكان مكتوبا على الورقة المحيطة بالزجاجة:

- "ابحثي مرة أخرى".

عادت تبحث عن زجاجة السم الأصلية في كل مكان، وعندما فتحت الميكروويف، وجدت ورقة ثانية مكتوب عليها بنفس الخط.

- "ابحثي ثانية".

دخلت غرفة نومها وكلها غضب، وبرغم ذلك كانت مستمتعة بهذه اللعبة الحمقاء، التي تحاول فيها ضحى إثنائها عن عزمها، وبداخل الدولاب وجدت الورقة الثالثة.

- "توقفي عن البحث فلست وحدك".

وبعدها ارتدت ثيابها بعد أن فشلت في العثور على زجاجة السم، وفي ساعة متأخرة من الليل ذهبت إلى البحر ألقت عليه السلام وأخبرته بوجيعتها، ثم قفزت إلى المياه، ولم يعثروا على جثتها إلا بعد يومين، وكانت في حالة سيئة، من ملوحة ماء البحر، ونهش الأسماك فيها.

لم تعرف ضحى بانتحار سلمى إلا متأخرا، عندما هاتفها محامي سلمى لتزوره، وعندما ذهبت إليه وجدت رسالة من سلمى، تحتوي على مفاجأة غير متوقعة.

أما عن الرسالة فكانت مختصرة جدا:

- "حبيبتي ضحى، لقد عانيت كثيرا في حياتك.. وأنا لم يكن لي شقيقة، لذلك كشقيقتي أترك لك كل ثروتي.. وهي تكفي لتبدئي حياة جديدة".

شقيقتك سلمى

كانت مفاجأة كبيرة لضحى، أن حصلت على هذه الثروة الطائلة، وعندما تأكدت أنه ليس هناك خدعة أو مزحة في الأمر، كان أول ما فعلته، أن اشترت بجزء ليس بقليل من هذه الثروة، حريتها ممن استعبدوها وقتلوا شقيقتها.

وبعدها قررت ألا تعمل لعام كامل كي تستريح من ضغط السنوات السابقة، قبل أن تبدأ مشروعها وحلمها، بافتتاح نادي صحي كبير للسيدات.

وفي هاسيندا بالساحل الشمالي تعرفت على منير.. وعاشت معه قصة حب مشتعلة، انتهت كالعادة نهاية موجعة، بعد أن دارت بها الحياة دورة عكسية فكسرت ظهرها بخذلانه، وخيانته الكبرى لها، مع إحدى عاملات الفندق، في المنتجع الذي احتفلا فيه معا بخطوبتهما.

وما جرحها أكثر أنها عندما صارحته بالأمر، تعجب من كونها ترى في أمر مماثل خيانة، بعد أن غفر لها ماضيها الملوث.

وفي هذه اللحظة أدركت أن ماضيها سيطاردها، مهما حاولت الهرب منه، وأنها مهما كسبت في هذه الحياة، فهي في النهاية خاسرة.

فالدنيا لن تتعامل معها بعدل، مع كل ما فعلته في حياتها، وقلبها لن يعرف الحب أو السعادة أبدا.

وكان آخر ما رصدته كاميرات شقة ضحى، التي تحيط بها نفسها، كنوع من التأمين، لأنها لم تكن تأمن بعد شر من كانت تعمل معهم، ولأنها تسكن فيها بمفردها بعيدا عن أهلها.

أنها حملت زجاجة السم ووقفت تتأمل البحر من الشرفة لفترة قصيرة، بعدها أطفأت النور، ولم تعد الكاميرات ترصد أي شيء، إلا آلام احتضارها التي بدأت بعد عدة ساعات.

وبعد يومين وجدوا جثتها ممددة على أرضية المكان فاقدة للحياة.

وبعد فحص متعلقاتها، وجدوا رسالة سلمى، وقد أضيفت لها بضع كلمات:

- "الثامنة صباحا.. أنا قادمة لك يا داليا.. لم أستطع المقاومة أكثر يا سلمى.. هذا العالم لا يعرف الحب.. ولن يغفر لي أبدا".

تمت بحمد الله

- ما بعد النهاية -

ماذا بعد الحب ؟

حياة أم موت؟

سعادة أم معاناة؟

تركت لكم مساحة كافية في هذه الصفحة ليجيب كل منكم من واقع تجربته الخاصة عن هذه التساؤلات.

ومن قبل أن تصلني رسائلكم وآراؤكم، أخبركم أن نصفكم كاذبون.